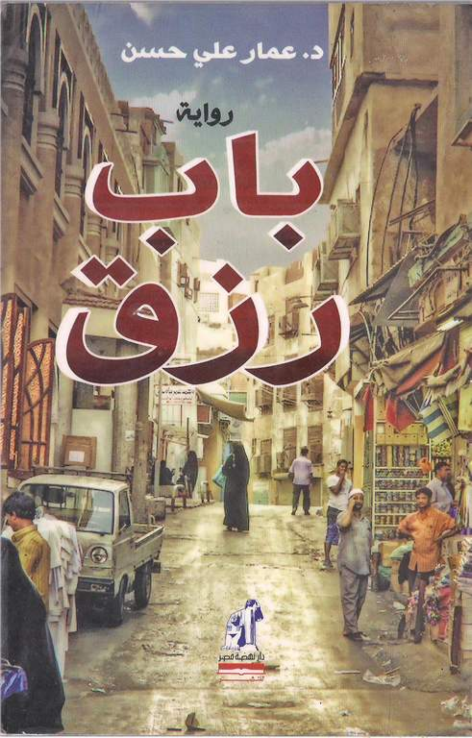

د. عمار علي حسن
رواية
باب رزق
دار نهضة مصر للنشر

العنوان:

بـاب رزق

بقلم:

عمـار علي حسـن

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

الترقيم الدولي: 978-977-14-5285-0
رقـم الإيـداع: 13745 / 2015
الطبعة الأولى: أغسطس 2015

تليفـون: 33466434 - 02 33472864
فاكـس: 02 33462576
خدمة العملاء: ١٦٧٦٦
Website: www.nahdetmisr.com
E- mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

الفصل الأول

(1)

تآلفت أخيرًا مع صوته الأجش، لأنني وقعت في غواية ابنته الفاتنة، وكان يطربني حديثه عن فتاته القديمة التي سمى حبيبتي على اسمها، ويقول عنها دومًا في ثقة بالغة:

ـ تشبهها تمامًا.

لم يولد التآلف من دون سبب، ولم يكن نتيجة لمجاهدات عميقة، قتلت فيها بقايا الكراهية المترسبة في نفسي له، ولهذا المكان البائس، الذي ترقد فتحات بيوته بين أكوام القمامة، وتخالط الكلاب البشر في طعامهم وشرابهم، وتصنع الروائح العفنة غمامات تظلل الرءوس ليل نهار، لكنه تآلف، نما كأشجار برية بلا عناية مني، وكان نموه في روحي، لأنني ببساطة همت عشقًا بالوردة بائعة الورد، أو هكذا ظننت في لحظة ضعف شديد.

ولعت بها كما ينبغي للولع أن يكون، وأنا غض نضير، وقلبي كفرخ يمام خرج من ظلمة العش النائم في حضرة الأغصان الملتفة في قلب غابة موحشة، إلى طلاقة السماء الزرقاء الموشاة ببهجة الخيوط الذهبية لشمس نعد تحتها أيامنا المترعة بالشقاء.

لكن غرامي، الذي ولد في غفلة مني، جر عليّ متاعب لا قبل لي بها، فما أصعب أن تقطف وردة تغطيها أكوام من الشوك الصلب المسنون!

كانـت هي كذلك، حبيبتـي التي يحبها هذا البلطجـي الفاجر، الذي يتيـه على كل أهل الحي بعصابته، وأنا الغريب الذي جاء من أقصى بقعة في هذا البلد بحثًا عن موضع قدم في الزحام الشديد.

كان اسـمها «سميرة» وكنت أسـامر نفسي بحبها وحيدًا تحت سقف أشرف على الهلاك، ولم أكن أحسـب أن أيامي معها ستقودني إلى عوالم لم أتخيـل أن أنزلق إليهـا أبدًا، وأن نهايتي سـتكون مجروحة على هذا النحو الخطير، بل وأنني سأسأل نفسي بعد أن أبحرت بعيدًا في دنياها:

- هل أحببتها حقًّا أم هو شغف عابر ورغبة في ترطيب حياتي القاسية بأي شكل؟

كان أبوها يشـعر بمكابداتي، بحكم خبرته الطويلة مع النسـاء، لكنه آثـر أن يتواطأ مع وجيعتي، ويـترك كل شيء لتصاريف القدر. هذا كان يليـق برجل علمته القطـارات ذات النعيق الغريب أن الفراق هو الشيء الوحيـد الذي يتسـاوى فيـه البشر، وأن المحطـات حافلـة دومًا بوجوه جديدة وحكايات مختلفة.

مـع هـذا أصر عـلى أن تكـون حكايتـي معـه دائمة، واصطـادني هو وأولاده كي أبقى معهم، حتى لو نسيت كل ما جئت إلى «القاهرة» من أجله.

كان يزعجني صوته في الأيام الأولى التي سكنت فيها غرفة تراقصها الريـح على سـطح بيت متهالك من طابقين يقطنه هـو وأولاده وزوجته وولدهـا، وكلهـم لا يعنيهم ما يشرد فيه طالب يدرس الفلسـفة، ويحلم بتغيير العالم، لكنه عاجز عن تغيير حتى بنطاله «الجينز» الذي بدأ يتفسخ ويتنسل، ولا يعرف من أين له أن يشتري غيره.

تآلفت حقًّا مع صوته، كما تآلفت مع شحيط عربات المترو وهو خارج من محطة «السـيدة زينـب» وأصبحت أتصور أن الحشرجـة التي تغلف الحـروف الخارجة من حنجرته هي بفعل عشرين شـخصًا، يتشـاجرون داخـل قفصه الصدري، ثم يهدءون ويأتون في امتنان ليؤنسـوا وحدتي، لاسيما في الليالي المطيرة المعبأة بهواء يهدر كمـوج عفي، فأنكمش خوفًا من أن تطير الغرفة بجسدي النحيل، وتتبعثر أشيائي القديمة المهترئة.

ناداني هو ذات يوم حين كنت أهبط درجات السـلم الخشـبي القديم الذي يهتز تحتي رغم تمهلي حرصًا على بقائه كي يدفعني من زقاق يخنقني إلى عزلة كئيبة تروق لي. ربما سمع قرقعة قدميَّ أو سعالي الذي ارتفع في وجـه الغبـار الذي تثيره أرجل عيـال حفاة يلعبون في الحـارة، وربما لمح طرف بنطالي الأزرق الذي لا أغيره.

- تعال يا أستاذ «رفعت».

وذهبت إليه دون تردد، فقد كنت أهبط من غرفتي البائسـة كي أهيم عـلى وجهي شـاردًا في خيباتي، ووجدتها فرصة لأحتـسي كوبًا مجانيًّا من الشـاي، وأريح سـاقين تعبتـا من مشـاوير البحث عن فرصـة في مدينة «القاهـرة» التي جئت إليها وكلمات أبي تـرن في أذنيَّ: «ترمح فيها الخيل أربعين يومًا ولا تجيب آخرها».

جلسـت جـواره عـلى «كنبة» تصـدر أزيـزًا متواصلًا مـع أي التفاتة أو حركـة بسـيطة منـي، وكانت المـرة الأولى التـي أراه فيهـا عن قرب، فأوجعتني الندوب التي تمـلأ بشرته، والتجاعيد التي تتلاحق على عنقه يملؤها العرق، وصفير صدره مع الشهيق والزفير يكاد يخرق طبلة أذني التي تواجه فمه الذي هجرته الأسنان منذ زمن طويل.

لكـن حاله يبقى، رغـم كل هذا، أفضـل بكثير من الهيـكل العظمي الملقـى على رصيـف بلا بلاط فـوق بطانية مشبعة بالوسـخ، والذباب يسـكن مـا يظهر مـن لحمـه، والقمل يتسـاقط من شـعره الملبـد كفروة خروف لم يجز صوفه من سـنين طويلة، وعوادم السـيارات التي تمرق في شـارع «بورسـعيد» غير عابئة به تهجم على منخاريـه وفمه المفتوح طيلة الوقـت، وتصنع أمام عينيه الكليلتين غلالات تحجب عنهما وجوه المارة ونصف أجساد الجالسين على المقهى المواجه.

العيـال ينادونـه: «عـم خليـل»، ورواد المقهـى إن جـاءوا على ذكره يقولـون عنـه: لا أهل له، وكما ترسـو الرمـم العائمة في النهر، رسـا هنا ذات يوم بالقرب من مسجد «المواردي» وضريحه.

هنـا، عـلى هـذه الكنبـة المطلية بلـون أخضر كالـح، أجلس أنـا أمام رجـل مختلف عن ذلك المتكوم على قارعة الطريق، فهو ليس مثله يتلقى صدقات العابرين، كما أن في جسـده بعض ليونـة، وفي عينيه بقايا أمل، رغم شـظف العيش وتهالك الصحة، والأهم مـن كل هذا أنه قادر على البـوح بـدون توقف، يـرش حروفه عـلى آذان من يجلسـون إلى جواره، وتسري في وجهه نضارة، كأنه يستعيد بالكلام شبابه الذي غرب بعيدًا، ويهرب من نوبات السعال والبصاق التي تنتابه بضراوة.

يسعل وتغرق عيناه في الدموع، ثم يكتم صفيرًا حادًّا، ويقول:

- حكايتي أنا عمك «عبد الشكور» فوق الوصف.

ثـم يغمض جفنيه مسـتعيدًا مشـاهد من زمن فات، وينبسـط وجهه بابتسامة تصغر لها سنه، وتستريح أنفاسه، وتغادره آلامه مؤقتًا، ويحكي لي عن الشظايا التي سكنت جسده في «حرب أكتوبر»، ودمه الذي نزف

عـلى الرمـال وروحـه التي كانت تنسـحب مـع النزيف، وعـن الأيدي المعروقة التي امتدت إلى جسده ورفعته على ظهر رفيقه، فزحف به وهو يغني في عذوبة موالًا موجعًا، سمعته روحه فتمهلت، حتى تم إسعافه.

ويضحك عن أسنان مثرمة ويقول لي:

- من وقتها اتعلمت إن حلاوة الصوت تفرح الروح.

ثم حكى لي عن قطار الدرجة الثالثة الذي كان يلتقط فيه رزقه، كما الطير، تغدو خماصًا وتعود بطانًا.

كان يغـرد بمدائح نبوية وأناشـيد دينية حفظهـا من حضرات الذكر التي كان يشـهدها في مسـجد «السيدة زينب». كان يمسـك الدف بيد ويضربه بالأخرى، وقدماه تتنقلان بهدوء وسـط صفي المقاعد الخشـبية الخشنة، وجسمه يميل يمينًا ويسارًا متصنعًا الخشوع تارة، ومتفاديًا باعة الشاي والقازوزة وشطائر الفول والطعمية والجبن، وكذلك الكمسري والمفتشون الذين يركبون في المحطات المتتابعة لمراجعة تذاكر المسافرين.

يتوه قليلًا ويقول لي:

- لم أترك خط سـكة حديـد إلا وأكلت فيه عيشًـا، الصعيد وبحري وخط القناة.

وعرفـت منـه كيـف كان يبيـت عـلى أرصفـة المحطـات المتجهمـة، وعربـات القطـارات المتهالكـة المهجـورة في المخازن العارية الوسـيعة، لكـن يبقى أجمل ما سـمعته منـه هو مغامراتـه العاطفية. كنـت أزحزح الـكلام ليصل إليهـا، فيقلب عينيه حوله حتى يتأكـد من أن زوجته غير موجودة أو متلهية في أعمال البيت التي لا تنتهي، ويقول:

- تتابعت الحبيبات في حياتي كزهرات الفل الملضومة في خيط متين، ولم تغب أسماؤهن من رأسي، أحفظها خماسية، بعد أن أسأل كل واحدة منهن عن سلسالها لأعرف بنت الحلال ممن جاءت سفاحًا.

ألمح زوجته بطرف عيني وهي تتحرك ذهابًا وإيابًا في طرقة ضيقة تؤدي إلى المطبخ وترمي أذنها لعلها تلتقط شيئًا تحاسبه عليه، لكنه يخفض صوته لينحدر إلى همس يموت على أذني، وأنا أسأله:

- وماذا عن أم العيال؟

يقهقه ويقول متنهدًا:

- نصيبي، والنصيب غلّاب، كانت زوجة أخي الذي ذهب إلى حرب 67 وعاد أشلاء لممناها في كفن بسيط، ودفناها في قرافة الإمام الشافعي، وفي الأسبوع الثاني لرحيله قالت لي أمي:

- لِمْ لحمك.

فتزوجتها لأربي ابن أخي، وأنجبت منها المزيد، واعتبرت أن عودتي من الحرب منتصرًا وحيًّا، ليس لأني أفضل من أخي الذي مات مهزومًا، لكن لأن الله ادخرني لواجب لا مفر منه.

يدس يده في جيبه ويشرد، ثم تتحرك شفتاه في صمت، وتروح أصابعه وتجيء فأدرك أنه يعد النقود التي جناها عياله، أولاده وابن أخيه، ويشعر أنني أفهم ما يفعله، فيقول وعيناه مرميتان في حجره:

- علمتهم يجيبوا القرش من الهوا.

(2)

قبل أن أنفض عن بنطالي ما علق به من غبار الشوارع المتربة الذي يتسلل في هدوء إلى «الكنبة» جاء الابن الأكبر لـ«عبد الشكور» واسمه «أبو عوف»، الذي يقضي ساعات طويلة في شارعي «بورسعيد» و«السد»، عيناه ترقبان الطريق، وفي فمه صافرة، ما إن يلمح سيارة تتباطأ حتى يقفز أمامها فاردًا ذراعه اليمنى، ونفخه يصدر رنينًا زاعقًا يقتحم الآذان، ثم يشير إلى مكان خال على جانب الشارع.

لا ينتظر عودة صاحب السيارة بعد أن يقضي مشواره ثم يمد يده طالبًا الأعطية، بل يأخذها مقدمًا، وهو يقول في نفسه:

- «البكاء على رأس الميت».

وإذا رد أحدهم كفه الممدودة، وقال:

- سأدفع لك لما أرجع.

يبتسم في هدوء، ثم يفغر فاه قائلًا:

- حتى تكون مطمئنًا عليها.

ثم يتلفت حوله لإيهامه بأن المكان غير آمن، ويهز رأسه في تأثر مصطنع:

- أولاد الحرام سرقوا كذا واحدة في الأيام الأخيرة.

فيدفع الرجل دون أن ينطق حرفًا واحدًا.

خمس عشرة ساعة على الأقل يقضيها واقفًا على حواف الأرصفة، التي تتقلب بين صقيع قارس، وحر قائظ، ينقل ساقيه النحيلتين بين ضفتي الشارع بعيني صقر، ليلتقط زبائنه، ويعرف بمجرد أن يهلوا عليه أشياء كثيرة عنهم.

نوع السيارة، وشكل الهندام ومستواه، وألوان الأطعمة التي تظهر في نضارة البشرة أو انطفائها، كلها تحدد قدر الأعطية المنتظرة، والطريقة التي على «أبو عوف» أن يتحدث بها.

لصاحب اللحية: السلام عليكم.

للحليق: صباح الخيرات، مساء الفل.

للسيدات والآنسات السافرات: «بونجور» و«بونسوار» و«ميرسي».

للمنتقبة: «حللت أهلًا ونزلت سهلًا».

تتغير بينهم وبينهن طرق المخاطبة: سعادة البيه، ست هانم، شيخنا الطيب، أختنا الفاضلة، آنستي المحترمة. تلاوين من العبارات والإشارات والإيماءات تتغير حسب الأشخاص والأحوال. هكذا تعلم في ستة أشهر قضاها تحت سفح الأهرامات العريقة، لكنه لم يستمر هناك بعد انهيار الموسم السياحي تحت ضربات جماعات إرهابية وزعت الدم والنار والأكفان والعويل على بقع ومواضع شتى.

كان مضطرًا إلى أن يعطي ظهره لمثلثات الأحجار العالية المضلعة الواقفة في قلب التاريخ، ويأتي هنا إلى غابات الأسمنت المتجهمة الواقعة عن يمينه، والجدران المتهالكة الكالحة التي تنحني على يساره، ويجلس

أبوه بين أربعة منها، وصوت سعاله الحاد يخترق المنعرجات الضيقة، ويأتيه حين يهدأ الشارع، وتنصت السيارات الباحثة عن مكان.

يسميه أبوه «أبو كلام» ينطقها أحيانًا على مرحلتين بينهما شهقة وسعلة وتمخط وسفر مقلتين رجراجتين في محجريه، وقد يضيقهما ويسترسل في التوصيف والتنكيت بلسان طليق.

وحين يرى ابنه قادمًا يقول:

- ورث عني حلاوة اللسان، هي مفتاحه لأبواب كثيرة مقفولة بترابيس من حديد.

ثم يغمض عينيه قليلًا ويواصل:

- لكن لسانه لا يساوي شيئًا إن حضر لسان «سميرة»... اجتمعت فيها الغزالة والنمرة، كيف؟ لا أعرف.

ما إن ينطق باسمها حتى يخفق قلبي، ويفلق جدران صدري، ويسيح هائمًا في المكان، ثم يفلت من الظلمة الراكدة تحت الحوائط والروائح العطنة، ويجري في الزقاق إلى شارع «بور سعيد»، ومنه إلى شارع «المبتديان»، ثم يعبر شارع «قصر العيني» إلى حي «جاردن سيتي» العريق، ليصل إلى هناك على كورنيش النيل، يحوم حول ذات الوجه الملائكي التي تبيع عناقيد الفل والياسمين للعشاق العابرين.

حين رأيتها أول مرة خطفت روحي، فذهبت خلفها وفي عيني تحط شمس العصر المائلة في استحياء على هامات الشجر والبنايات وتسكب في قلبي دفئًا، وتمنح خطوات فتاتي التي أتقصدها ليونة تتأرجح في صدري.

يحلـو لي أن أرمـي نظـرات عجلى إلى وجههـا الرائق لأنعم بسـحره الأخاذ. طبق تفاح هو، نائم تحت قبعة من الخوص، تمنحه هدوء الظلال ووداعتها، وأسـأل نفسي حين أكون وحيدًا تحت السقف المهتز الذي لا يقيني مطر الشتاء:

- هل خلقت لأقع في غرامها فقط؟

وأحيانًـا يأكلنـي النـدم على أنني همت بها على اتسـاع المسـافة بين ما أذهب وما تذهب.

كانت بنت سبع عشرة سنة، وأنا أكبر بست سنوات على الأقل، وبيننا فروق شاسعة في الانشغال بالكتب، هي لم تحصل إلا على الشهادة الابتدائية، وأنا في أول عهدي نحو درجة الماجستير في الفلسفة، وأكلت السطور عيني، لكنها لم تحرمها بعد من النور الذي يكفي لأرى جمالها كما ينبغي لروعته أن تُرى.

حين يراها أبوها قادمة بعيد العشاء، يملأ عينيه الكليلتين منها ويقول:

- من عشر سنين وهي توفر لقمتها ... بنت بمائة رجل.

يقبل يديه بصوت عال ويترك على بطنها وظهرها بعض لعابه، ويقول:

- عشقت جميلات كثيرات، وطلبت من الله أن يمنحني واحدة من صلبي فكانت «سميرة».

يحكي عنها بشغف، ويرش حروفه على قلبي، فأسمع نبضاته، وألمحها تتراقص في عروق الجزء المكشوف من ساقي، بعد أن انحسر



عنها بنطالي. يرمقني هو بنصف عين مغلقة، ويفحصني كرجل خبير بالناس، فأشعر أنه يعرف كل ما يدور في نفسي. أختبئ منه، وأتدثر بشرودي الطويل، ومحاولات تغيير دفة الكلام، لكنه يعيدني دومًا وهو لا يمل من تكرار:

- عاوزة ولد هُمام، شارب من لبن أمه.

(3)

المرة الأولى التي رأيتها فيها كنت أسير إلى جانب السمسار وهو يرسل ناظريه يجوبان النوافذ المنبعجة المتململة حين هلت هي كصبح وردي بهيج، تسبقها ابتسامة وعجيج يثيره حذاؤها القديم.

رفع وجهه إليها وسألها:

- هل عَزَّل ساكن السطوح؟

ردت دون تمهل، وفي حياد واضح:

- رجع بلده منذ أسبوع، ولن يعود.

وهمهمت بكلام لم أتبينه، بينما وجهها يتضرج بحمرة غضب، سرعان ما غابت في دوائر من الاشمئزاز الظاهر.

مقابلة قاسية، صدمتني أنا القادم إلى هذه المدينة حديثًا ولا أريد أن أعود.

فأل سيئ أكده السمسار دون أن يدري، حين علق عينيه في الفضاء القريب المغبر، وقال:

- سكنها كثيرون ورحلوا، لكن حالتها جيدة.

ودفع قدميه فسرت خلفه وأمامنا الفتاة التي أعطتنا ظهرها فلم أعد أرى تفاح وجهها، وهجمت علينا رائحة نتنة كادت تخلع أنفي، فمددت يدي وسددته، ورأيت كلبًا يجري وفي فمه كيس بلاستيك

يترجرج وتتساقط منه قطع عفنة، كان السمسار يدوسها دون اعتناء، وواجهتنا ساحة ضيقة بها حنفية مياه يقف عندها كلب أسود ضخم، ويمد بوزه ويرشف القطرات النازلة من الصنبور، بينما امرأتان قادمتان من الناحية الأخرى وكل منهما تحمل علبة صفيح ضخمة فوق رأسها. وراحت إحداهما تسرع الخطى لتبعد الكلب، فجرى بعيدًا، ودفعت هي صفيحتها إلى فوهة الصنبور وأدارت ذراعه الحديدية، فاندفع الماء غزيرًا، وبعضه يتقاطر بكثافة على قدميها اللتين جردتهما من الحذاء.

كدت أرجع دون أن يُشعر بي لولا أن التي تمشي أمامنا التفتت وأرتني تفاحها، وابتسمت هذه المرة، وقالت بصوت هزتني طلاوته:

- تفضل.

عند باب بيت وقف السمسار وأنا خلفه، بينما دخلت هي، واختفت في دهليز مظلم غشاها تمامًا، فشعرت في هذه اللحظة بافتقادها، رغم أنني لم أرها إلا منذ دقائق.

راح السمسار يدق سلالم يتعانق فيها الخشب مع صفائح خفيفة من الحجر، وأنا خلفه بدقات أكثر حدة، حتى انتهينا إلى فراغ ضئيل ينفتح على السماوات الزرق، والشمس فاقعة الصفار، وسمعت قرقرة دجاج، وصياح ديكة، وهديل حمام، وأزيز زنابير تمرق من أمام أنفينا ذهابًا وإيابًا، ولمحت عيني شيئًا لمع في شعاع الشمس ثم اختفى تحت كومة كراكيب.

تقدم فتبعته إلى مربع صغير من جدران طمي طلاءاتها مقشرة، والثقوب غير المتساوية موزعة بلا انتظام على صفحتها. وحين وضع يده على الباب سمعت أنينًا، لكنه طمأنني:

- زعيق الخشب القديم.. والمسامير الصدئة.

لكـن في ليلتي الأولى سـمعت نهش السـوس، يخالط دبيـب النمل، الذي نشط بحثًا عن فتافيت الطعام المهملة. تركت له الغرفة، وخرجت إلى السطح، فتعثرت قدمي في فئران وجرابيع ترمح، إلا أن كل هذا ذاب حين اقتحمني غنج امرأة تضاجع الصمت.

سـمعت صوتها فقط، ولم يأتني صوت ذلك الذي يـروي حرقتها. كانت تكتم صرخاتها، وتشهق وتصدر صفيرًا مشبوبًا باللذة.

ألفـت هـذه الأصـوات في الليـالي التالية، وكنت أشـتعل شـبقًا كلما جاءتني، بل إنني استرقت إليها السمع. وحين كانت تغيب كنت أطفئ اللمبة المعلقة بلا عناية في السـقف، وأزيح النافذة الهشـة، وأشـنف أذني في وجه الظلمة المثقوبة بأنوار شحيحة، تبعثها لمبات محطة مترو «السيدة زينـب»، وكوبـري «زينهـم» أو الأضـواء الهاربـة مـن ثقـوب البيـوت المتهالكة التي تحوطني، وتحملني على أكتافها.

كل ليلـة كنت أفعل هـذا وأغرق في اللذة. وفي الليالي التي تضن عليَّ بأصوات البهجة الموجعة، كنت أغمض عيني، وأسـتعيد ما جرى، بينما روائح البانجو والحشـيش تملأ أنفي، وتسحبني قليلًا نحو ما لم أكن على ائتلاف معه.

صوت يحضر أم صدى؟ لا أنشـغل بهذا، سيان عندي، وكان عليَّ أن أعوض الفارق بين الواقع والخيال بمسـاعدة جسـدي على الاشـتعال. كنـت آكل نفسي، وأسـقط جثة خامـدة، لأن الطعام الـذي التقطته على مدار اليوم لا يساعد بدني على إشباع لهفته المتجددة.

وحـين أفتـح أيًا مـن الكتب القليلة التـي اصطحبتها معـي تقع هذه الأصوات في أذني، وأشرد فيما يجري وراء الجدران المتداعية، أتخيله، وفي الخيال إجادة، وفيه تحليق هناك في الأقاصي.

لكني مع «سـميرة» عرفت لذة أخرى، إنها لذة الروح، ومعها لم أعد بحاجة إلى الجلوس عند النافذة لتسول الشهقات الحارقة، بل الاستلقاء فـوق سرير ضيـق، يكاد يلتصـق بالأرض الأسـمنتية المملـوءة بالحفر، واسـتحضار الوجه الملائكي، والصوت الرخيـم، والخطوات الجذلانة الواثقة.

كان هـذا في البدايـة، ثـم عوضتني قليـلًا عن افتقادي لجسـد ناعم، أجرب معه بعض شبقي، وأدخل به إلى عالم جديد عليَّ.

لكن كيف لي بها وحولها هذه الأسيجة؟ إخوة يقفون أمامها وخلفها، وعن شـمالها وعن يمينها، كحراب غليظة مسـنونة، على جنباتها المبرومة أشواك متأهبة.

إخوة «سـميرة» الذين لم أكن أحسـب أن لي معهم أيامًا لم تخطر على بـالي حين كنت هـادئ البال ببلـدتي الجاثية في وداعة عـلى أرض خصبة نظيفة.

(4)

يعود «أبو عوف» مهدودًا فيطل من عينيه سلام، لا يتواءم إطلاقًا مع ملامحه الخشنة. أما «حسونة» فعلى النقيض تمامًا، ينضح شرًّا لا يسعفه جسده النحيل من الإفراط فيه. المرة الأولى التي رأيته فيها كان يرتج في ريح متربة هبت فجأة، ونفخت قميصه، وصدت ساقيه، وكادت تطيحه أرضًا.

كنت على حذر دائم منه، وأشعر أنه يراقبني مع فائض الوقت الذي لديه. فعمله فقط هو الذهاب كل ليلة إلى مسجد «عمر مكرم» بعد صلاة المغرب، ينتظر كبار المعزين، ليبدأ مع وصلات من المديح والتودد تمكنه من أن ينال ما يريد.

ما إن يلمح صاحب أحد الوجوه التي رآها في الصحف أو التلفزيون حتى يجري إليه ويناديه باسمه، بعد أن يسبقه باللقب «دكتور» و«لواء» و«مهندس» و«أستاذ» ثم يتبع ذلك بـ«بيه» أو «باشا»، وقطعًا يلحق الاسم والرتبة بكلمة «العظيم».

كنت أسمعه يقول لأبيه وهو يفرغ في يده بعض النقود التي التقطها ممن ناداهم:

– أُثَبِّتُهُم لكن بطريقة محترمة.

وحين سألته ذات مرة عما يقصد، رماني بشرر من عينيه الضيقتين، وقال:

– النشال والبلطجي يثبت ضحيته بوضع مطواة قرن غزال في جنبه أو على رقبته، وقد يكون مسدسًا محشوًّا حتى فمه، فيخرج له كل ما في جيبه خوفًا على حياته .. أنا آخذ جزءًا قليلًا مما في جيب من أقصده وهو راض، وحياته في أمان ... البلطجي يفعلها مرة كل يوم أو أيام، والنشال قد لا يتمكن إلا من تسليك محفظة من جيب موظف غلبان في الأتوبيس، أنا آخذ من عشرات الأثرياء والمستورين، أكثر مما يحصله النشال والبلطجي، وأنا في أمان.

ثم يقهقه ويمسحني بعينيه من قدميَّ حتى ناصيتي، ويقول:

– لا مؤاخذة، أنا لا أقصد تخويفك مني، فلا أنا ولا أمثالك الذين لا يحتكمون على عشاهم، لكن أصحاب الجيوب المنفوخة، والكروش المحشورة فيها ديوك رومي واستاكوزا وويسكي استكتلندي معتبر.

يصمت برهة وبعدها يلخص الأمر كله:

– محتال يتسول من لصوص كبار.

وكنت قد أخطأت معرفة «حسونة» في أول عهدي بهذا البيت الذي يريد أن ينقض، حين رأيت كومة من الجرائد والمجلات ملقاة إلى جانب الحائط، وتحوم حولها ذبابتان، ثم تحطان وتلتصقان في صمت. سألت فعرفت أنها له.

وقتها تخيلته يرتدي نظارة سميكة، وآثار القراءة موزعة على كلامه ومشيته وسحنته، لكنني عرفت أنه يشتري جرائد قديمة ليقص صور المشاهير، ويدسها في جيبه، بعد أن يكتب بخط ركيك أسماء أصحابها في الخلف، فوق ما يخرج مع الصورة من سطور الصفحة الخلفية، أو يكتب

تحت الصورة نفسها. في الأغلب لم يكن مضطرًا لهذا لأن الصحيفة والمجلة تطبع الأسماء تحت الصور.

يرتب الصور في علبة صفيح متوسطة الحجم، يحلو له أن يجلس ساعة من كل أسبوع، ويفردها أمامه، مجموعة تلو أخرى، ويتفرس فيها مليًّا، وينظر إليَّ ويقول:

- أخرجني أبي من المدرسة فكتب عليَّ أن أذاكر الصور.

يلتقط أحيانًا «ريموت» التلفزيون الملون الذي اشتراه هو، ويُقلِّب القنوات، فإن رأى شخصًا متأنقًا، ومنتفخ الأوداج، يتوقف أمامه، ويرفع وجهه من على الشاشة، ويرصه في رأسه، ثم يثبته. وحين يُكتب اسمه تحته في شريط رفيع يلتقطه «حسونة»، ويكرره عدة مرات، ثم يطيل النظر إلى الصورة، ويثبتها بمسامير طويلة في ذاكرته، التي صارت سجلًا لعلية القوم.

يحرص كثيرًا على أن يحفظ جملة أو يعرف موقفًا لأحدهم، وفي الثواني المتاحة له أن يقترب منه أمام مسجد «عمر مكرم» يكون قد نطق بها، فتذوب المسافات، وتمتد الأيدي، وتلين القلوب، وتنفتح الجيوب.

مع الأيام صار معروفًا للخارجين من العزاء، والداخلين إليه. بعضهم يمد الأعطية دون أن يكلفه عناء التذكر والكلام، وبعضهم يتلذذ بالأوصاف التي يطلقها «حسونة» فيطرق برأسه، مشنفًا أذنيه، وهو يقول في سره: «أزد وأطربني يا ابن النصابة».

لكن السيارات الفارهة، والبذل الفاخرة، والساعات باهظة الثمن، والأحذية التي تتوهج عليها قناديل الشارع، وروائح العطور المعتقة، راحت تستقر في رأس «حسونة» بمرور الأيام، فزادت أوجاعه، خاصة

في الليل وهو يتقلب مسهدًا على الكنبة التي تتأرجح، فتصدر صريرًا حادًّا.

كان مولعًا بأن يخصص كل شروده في المقارنة بين حاله التعيس وحال هؤلاء الذين ينظرون إليه بأطراف أنوفهم، وكأنه حشرة مزعجة، حتى وهم يستمرئون مديحه اللزج.

لهذا لم أره يومًا يضحك، أو يزيل ولو جزءًا ضئيلًا من التأفف الذي يسكن ملامحه. وبمرور الوقت راح يجمع نثار تكبرهم، ويرشه على كل من يعرفه من أهل «تل العقارب».

ونلت أنا نصيبًا وفيرًا من هذا النثار العفن، وكنت أهشه عن وجهي في صمت، لكن ذرات سوداء راحت تتراكم في قلبي نحو «حسونة» وكنت أخشى أن تصير حصاة، أقذفها يومًا في وجهه، فأتعرض لإيذاء لا طاقة لي به.

(5)

كنت في البداية أحاذر في الاقتراب من «سميرة» ولم تشجعني أبدًا معاملة أخيهم الثالث «عزازي»، الذي كان غاية في اللطف والأنس معي، رغم أنه أكثرهم معاناة.

كان يستيقظ في البكور، يخطف كرتونة المناديل الراقدة تحت الجدار، إلى جانب جرائد «حسونة» ومجلاته، ويملأ بطنه من عربة الفول الواقفة تحت كوبري «زينهم» ويعبر إلى الناحية الغربية، حيث مفارق الطرق على الفرع الصغير للنيل الذي يكون قد انتهى لتوه من تطويق جزيرة «المنيل» مستعدًا لتطويق جزيرة «الزمالك».

ينحني عند مداخل شارع «قصر العيني» أمام نوافذ السيارات الواقفة في الإشارة، ويعرض بضاعته الرخيصة. سائق واحد من كل مائة على الأقل يبتسم له، ويمد إليه الثمن الزهيد، ويخطف علبة المناديل قبل فتح الإشارة. البعض لا يكون جاهزًا وتستعجله أبواق السيارات فيرمي الجنيهات على الأرض، و«عزازي» لا يستطيع التقاطها إلا إذا هدأ الطريق أو أُغلقت الإشارة من جديد. أحيانًا يهيج الهواء فيطيرها بعيدًا. وهناك من يأخذ العلبة ولا يسعفه الوقت لفتح تابلوه السيارة والتقاط ثمن ما أخذ، فيمضي بغنيمته.

تدور الشمس على جبينه وهو واقف طيلة النهار، صبح، فضحى، وظهر فعصر حتى المغيب، وفي الليل تحط مصابيح الشوارع على وجهه

الأسمر فيلمع بالعرق الذي لا يزال يتفصد من مسام جلده، رغم رحيل الشمس وبعض النسائم الطرية التي يجود بها النيل.

أراه كل يوم تقريبًا، في الذهاب إلى «جامعة القاهرة» وفي الإياب. أخرج يدي من شباك «الميكروباص» إن كنت جالسًا إلى جانب النافذة، وأجيبه بصوت عال:

- خلي عنك يا «عزازي».

ويرد كل مرة:

- تسلم يا أستاذ.

تبهجني كلمة أستاذ، مثلما يغتبط الذين يهبطون من سياراتهم الفارهة عند مسجد «عمر مكرم» من إطراء «حسونة»، وأشعر أن «عزازي» يزيل عني بعض الخوف من الاقتراب أكثر من «سميرة».

«سميرة» ...

ااااااااااه، «سميرة»، وجعي وبهجتي، متاهتي وملاذي، في هذه المدينة التي لا تريد أن تأخذني بين ذراعيها العملاقتين.

سعيت وراءها ذات عصر، وهي تشق الشوارع بعناقيد الفل والياسمين وعصي الورد البلدي الأحمر. سبقتها بخطوات صامتًا فلم تشعر بي. ولما وصلت إلى الكورنيش خففت ساقيَّ، فمضيت بعيدًا عنها، وجلست على واحد من المقاعد الحجرية الطويلة المستطيلة الموزعة بانتظام، ليريح العاشقون والضائعون والهاربون من جحيم الغرف الضيقة المقبضة أجسادهم عليها.

أرسلت بصري ليجوب امتداد النيل في الشاطئ الغربي، ويحط على العمارات الشاهقة، ثم ينزلق إلى النوادي المتتابعة النائمة في حضن المياه.

وحين ارتجف قلبي شعرت أنها قد اقتربت مني، فنظرت بطرف عيني، فإذا بها تبيع وردة حمراء لشاب طويل القامة، يتأبط فتاة، يشرق وجهها بابتسامة عريضة، لكن شابًا آخر يمشي خلفه مع فتاته، هز لـ «سميرة» رأسه رافضًا فُلّها ووَرْدَها، ولم يُعرها أدنى اهتمام.

ثالث قال لها ضاحكًا:

- خلاص تزوجنا والحمد لله.

تقدمت خطوات، والتفتت عن شمالها فوجدتني جالسًا. اتسعت حدقتاها، فازدادت عيناها روعة، وابتلعتا وجهها النضير. انتزعت أنا كل طاقات المحاكاة المدفونة في نفسي، وقلدت الذين يبدون دهشة عارمة، فاندهشت، وانطلت عليها اندهاشتي.

- «سميرة» !!

ملأت عينيها مني، وسألتني عن سبب مجيئي إلى هنا، وبانت في كلامها تلميحات لم تخف عليَّ، وقصرت المسافة أمام لساني، فقلت لها:

- لم أجد وليفتي بعد.

وأنستها كلمة «وليفة» فاشتعلت البهجة في وجنتيها، ومدت يدها، لتعدل وضع قبعة الخوص التي تهزها النسائم قليلًا، وقالت:

- أعلم أنك تلميذ.

ضحكت وقلت لها:

- تلميذ هذه تقال لأطفال المدارس .. أنا طالب دراسات عليا في «جامعة القاهرة».

اعتراها خجل وردت:

- منكم نستفيد.

وصمتت برهة وسألت:

- ما دراستك؟

أجبت مبتسمًا:

- فلسفة.

هزت رأسها، وبان عليها أنها لم تعرف عما أتحدث، لكنها عادت إلى ما بدأته، وصرحت بما سبق أن ألمحت إليه:

- هل تنتظر أحدًا؟

- لا.

ابتسمت، وخفَّضت عينيها بعد أن ضيقتهما قليلًا، وسألت من جديد:

- أنت تدور على وليفتك؟

اهتز قلبي وتلعثمت:

- لا .. لا .. أبدًا، أنا أشم الهواء.

أحدثت فرقعة خفيضة من شفتيها، وقالت:

- عندك حق، أحسن من الخنقة التي نعيش فيها.

نظـرت حولي فرأيت العشـاق يتقاطرون، ذكرًا وأنثـى، أنثى وذكرًا، وهـم يمشـون الهوينـى، متجاورين أو متشـابكي الأيـدي، وفي عيونهم ألق. وعدت لأنظر إلى ما بيديها، وفي حضنها، وقلت:

- آسف، عطلتك عن شغلك.

لوت شفتيها في امتعاض، وندت عنها تنهيدة، تأوه لها قلبي، وقالت:

- أشتغل من عشر سنين وزهقت.

ومسـحت مـا تيسر لها مـن طـول «الكورنيش» وعرضـه في نظرات شاملة، تحاول أن تقاوم دمعتين تتأهبان للسقوط تحت قدميها، وقالت:

- كبرت ولم أعد قادرة على مواصلة هذا التسول الجميل.

ووجدتهـا تجلـس إلى جانبـي وتفتـح قلبهـا، وتخـرج كل أوجاعهـا وتضعها على كفيَّ. حكت في انسياب وعمق، بقدر آلامها المعتقة، وكان تبعث عينيها لتعانقا المياه المنسـابة في هـدوء، وتعود إلى تحت قدميها من جديد.

وأدهشـني ما نطقت به، وبانت لي في هذه اللحظة فيلسوفة لا تعرف أنهـا كذلك، أو ربـما تمنيت أنا أن تكون هكذا. بدت بـها قالته أنضج من سنها بكثير، ووجدت نفسي أشرد في كلامها، خاصة حين قالت:

- حين تمد يدك للعشـاق بالـورد والفل طالبًا صدقة، فأنت تتسـول بالجـمال، جمال الورد، وجمال الحـب، مثلما كان أبي يفعـل بصوته الحلو، ومديحه الربَّاني.

ولما اتسعت حدقتاي عجبًا، رأت هي ما يدور في أعماقي، فقالت:

- لا تسـتغرب، فقد تعلمت هنا ما لا يتعلمـه أبناء المدارس .. كثيرًا ما سـمعت كلام غزل، يهمس به العشـاق أو يصرخون، ورأيت رءوس البنـات مائلة، وعيونهن مغمضة من السـعادة، كما سـمعت كلام عتاب والدموع حاضرة، ووقفت مرات عديدة أمام شـباب وشـابات يشكون الهجر والفراق بصوت عال، دون أن يدروا شـيئًا عن الذين يمرون من أمامهم.

وظهر عشـاق يتتابعون بين جذوع الأشجار العتيقة الواقفة في محاذاة النهـر، فتحـرك داخلها ذلـك المتأصل بحكـم خبرة السـنين والحاجة، ووجدت هي قدميها تبتعدان عن مقعدي الطويل الصلد، فرفعت يدي ملوحًا بالسلام، فخطفت ابتسامة من طرف روحها، وألقتها في وجهي، وكان هذا يكفيني.

نعم يكفيني، على الأقل وقتها ....

(6)

حين عدت قبيل المغرب سمعت جلبة عارمة تتدفق من البيت الذي أقطن فيه، وتسيل في الزقاق الضيق إلى نهر شارع «بور سعيد»، تختلط فيه ثلاثة أصوات، أجش متعثر، وجهور سالك، ورفيع كثغاء عنز عجوز.

ولم يكن من الصعب عليَّ أن أميز أحدها، كان صوت «عبد الشكور»، يضغط على حنجرته الخربة، كي يوبخ أحدًا بألفاظ جارحة:

- أنت طرطور وخيخة وناعم زي البنات .. يا ليتني ما خلفتك يا عار، غور من وجهي، لعنة الله عليك في الدنيا والآخرة.

وفر بشتائمه تلك عليَّ قبل أن أصل إلى البيت أن أعرف مع من يتشاجر، لكنني تعجبت لأن ما نعت به المشتوم، لا ينطبق على «أبو عوف» ولا «حسونة» ولا «عزازي». وحين أطل وجهي من مدخل البيت رأيت شابًا ممشوق القوام يقف أمامه، واقتحم أذني قول الزوجة:

- ارحم عظم التربة، مهما كان هذا ابن أخيك، وأخو أولادك، وأقرب واحد لبنتك حبيبتك.

ما قالته جعله يهدأ، فرمى ثقله على الكنبة صامتًا، فارتجت وكادت تنام على جنبها لولا أن سندها الحائط، وراح شخير صدره ينوب عن لسانه في إبداء الغضب المكتوم.

رأتني الزوجة التي لم أكن قد عرفت اسمها بعد، فقالت مرحبة:

- تفضل يا بني.

لكنني غضضت بصري، وهممت أن أصعد السلم، وأتسلى بأزيزه حتى أصل غرفتي، ففوجئت بها تقول:

- لازم تقعد معنا، لتهدئ عمك «عبد الشكور».

استدرت عائدًا، وجلست إلى جانبه، ووضعت يدي على كتفه، ورفعت عيني لتجوبا جسم الواقف أمامي، وقبل أن أسأل عما يجري، نطقت الزوجة، وهي تشير إليه:

- ابني «عاطف».

والتفت إلى زوجها وأكملت:

- وابن «عبد الشكور» أيضًا .. ابن أخيه لازم يبقى ابنه.

كان صدره قد كف عن الشخللة، وانتظمت أنفاسه، ورنا شاردًا في شيء لا أعرفه، ونضحت دموع من عينيه، وأشار بيده إلى «عاطف» أن يذهب بعيدًا عن ناظريه، فمضى إلى الزقاق، لكنه تعثر عند العتبة في حجر صغير، يستقر على جانب مزقة من صحيفة، كنستها الريح، فامتلأت ملامح «عبد الشكور» بالعطف، وقال:

- خلي بالك من نفسك يا بني.

ثم غرق في سعال حاد كاد يخلع صدره، ومد يده إلى فوطة متسخة بجانبه، فمسح فيها لعابه. وحين التفت ليعيدها إلى مكانها لمحت في خده شامة، لم أرها من قبل إلا في وجنة «سميرة»، لكن شتان بين الاثنتين، تلك التي تغيب في التجاعيد والصفرة وما أثاره الزقاق من غبار، وهذه التي تزين الأبيض الأحمر، والأحمر الأبيض.

قمت لأختلي بنفسي سارحًا في بائعة الفل، لكنه أمسك طرف قميصي، وقال:

- اشرب الشاي معي.

وكعادته فتح باب الكلام، هذه المرة عن «عاطف»، فعرفت أنه غير راضٍ عنه. يغيم وجهه بسحاب غضب مقيم ويقول:

- عامل فنان بسلامته.

وعرفت منه أن «عاطف» من أولئك الذين يجدهم الناس أمامهم حين يدخلون الملاهي والحدائق العامة المفتوحة، يرتدون فرو دب أو أسد أو جلدًا سميكًا لهيئة فيل أو زرافة، ويتقدمون متأرجحين من فرط أحزانهم نحو الأطفال، يداعبونهم ويلاطفونهم ويسحبونهم إلى ساحة البهجة، فيرقصون معهم، وقد يشدون فراءهم، ليختبروا ما إذا كانوا بحق أسودًا ودببة وزرافات أم لا؟ بعض الأطفال العدوانيين يضربونهم براحات الأيدي أو يركلونهم بأقدامهم الصغيرة، وهم يضحكون تلذذًا، أو وهم يتميزون غيظًا من هذا الكائن العجيب الذي خرج من الغابة إلى الملهى أو الحديقة.

عرفت من «عبد الشكور» أن «عاطف» يحلم أن يكون ممثلًا شهيرًا، ولذا يطارد وجوه الممثلين الكبار على أفيشات السينمات، ويجمع معلومات عن الذين صعدوا الجبل من بينهم، حاملين فوق ظهورهم المكدودة أثقال سنين الفقر والغربة، زاحفين من الشوارع الخلفية، التي تتمطى في كسل بين بنايات متداعية، وشقوا الطريق إلى الميادين الفسيحة، والأبراج الشاهقة.

كانت تروق له أكثر الأفلام التي تلتقط حكاياتها من الحارات والأزقة والعطوف المنسية، وتصبغها بألوان زاهية، ترشها على البيوت والوجوه كاميرات، تتعمد تصويب نورها ودفئها إلى كل الذين سيطلقون حروفهم وظلالهم في الأثير لتملأ أسماعًا وأبصارًا، وتخطف قلوبًا وعقولًا، وتفتح أفواهًا اندهاشًا وشغفًا.

يمشي أحيانًا مطأطأ الرأس، غارقًا في أحلامه، حتى يصل إلى مبنى «دار الهلال» فينعطف يمينًا، لتصده مدرسة «السنية»، فيميل يسارًا، ليدخل إلى حي «الناصرية»، حيث تهجم على أنفه روائح أحشاء الذبائح السمينة التي تقلى في الزيت، والكوارع التي تغلي في ماء دسم، ودخان الشيش المجهدة التي لا تتوقف ليل نهار، وتهجم على أذنيه أصوات مختلطة خارجة من شاشات زرقاء موزعة على المقاهي المتلاصقة، مربوطة بأجهزة «فيديو» مختلفة الطرز، تقبض في أجوافها على شرائط للأفلام الحديثة التي رفعتها دور العرض السينمائي قبل أيام أو قبل سنين قليلة، وما بينها عشرات القصص ومئات الأدوار، يحملق فيها الجالسون، من صنايعية وأفندية ومشردين وعواطلية، بعضهم آكل شارب متفرج طيلة الليل وجزء من آخر النهار، ليدفع في أيام ما كسبه في أسابيع.

ما حكاه لي «عبد الشكور» عن «عاطف»، دون أن يعطي لسانه فرصة للتوقف لأخذ قسط من الراحة، جعلني أفهم أنه اسم على مسمى، رقيق الحال، وحنون وحالم، يخطفه من واقعه البائس خيال جامح، يحلق به بعيدًا عن «تل العقارب».

وسألته:

- هل تكره طموحه؟

غمغم في ضجر، ورد:

- الولد يمسك في حبال ذائبة، وأخاف عليه من حصاد الأوهام.

يمد بصره في عمق العتمة التي ابتلعت النور عند الجدار، ويطمئن إلى أن زوجته ليست واقفة تتنصت عليه، ويواصل:

- إخوته يكسبون أكثر، لا يعيشون في أوهام فارغة .. لم يكن هناك أحلى من صوتي، لكنني لم أفكر في أن أكون مطربًا، ولو في أفراح الرعاع.

صمت برهة فقلت له:

- ليس الطموح حرامًا ولا عيبًا.

نفخ وتزحزح فأزت الكنبة من تحته، ورد:

- ليس طَمُوحًا من ينتظر الصدفة.

ولمَّا بان في عينيَّ عجب من كلامه، كما سبق أن تعجبت من كلام ابنته «سميرة»، ربت كتفي وأسعفني، وأنا أُنفِّض بنطالي مستعدًا للصعود إلى غرفتي:

- لا تستغرب، تلطمت طويلًا فتعلمت كثيرًا.

(7)

كنت أريد وقتًا للشرود في وجه «سميرة» وجسدها اللين. قمر يشرق على النيل في نهارات دفيئة. عود خيزران يتلوى في دلال، ويلثم الأرض يمينًا ويسارًا جريًا وراء عشاق لا يزالون يؤمنون بأن وردة واحدة تغني عن آلاف الكلمات.

كان الليل قد كتم أنفاس البيوت الخفيضة، وتسللت أنوار كوبري «زينهم» ودخلت من خروم النافذة، وجاء معها ضجيج السيارات، وباعة الفاكهة، وثرثرة الجالسين على المقاهي المتجاورة في مدخل ميدان «أبو الريش»، واختلطت بأصوات شجار موزع على أكثر من بيت، رجالًا ونساء، أولادًا وبناتًا. امتزجت الأصوات بروائح الطعام الرخيص.

ولأنني أريد الاختلاء بوجه «سميرة» وسيرتها القصيرة معي، أغلقت النافذة، وسددت خرومها بورق جرائد، وأطفأت مصباح الغرفة لأبعد عن وسادتي كتابين مدفونين تحتها منذ الليلة الفائتة، حتى لا يشغلني شيء عما اعتزمت أن أعيشه، وأتلذذ به.

رأيت وجهها مرسومًا على كل جدار، حتى «الشامة» فاحمة السواد بانت أمام عيني، كحبة توت ناضجة، شاردة من غصن طويل يهتز وديعًا في ضوء قمر الليلة الرابعة عشرة من الشهر العربي.

رأيتها ومددت يدي لأقطفها في لهفة وافتتان، نافخًا في لحظاتي البسيطة معها، لتصير وكأنها عمر بأكمله، أو هكذا تمنيت أن تكون.

تمايلت أمامي في خفر، وكأنها تقطع الخطوات نحوي بصدرها الناهد، على جناح الريح الطليقة. وجمح بي الخيال فأردت أن أقشر عنها ثيابها، وأنعم بالبياض الأحمر، إلا أنني لم أقدر، بل زدت عليه ثوبًا جديدًا، وتعلقت بروحها.

نعم روح «سميرة» هي التي كنت أحاول أن أرى.

الفصل الثاني

(1)

كان لا بـد من أن أحصل على عمل لأبقـى هنا، ولا تلفظني القاهرة بقسـوة وجحـود، وترمينـي على أول طريـق الصعيد، حسرتي أمامي، والمرارة خلفـي، لأعـود إلى أحضـان مـن يحاولـون إحيـاء الأمـل بين جوانحـي، حتـى وهم يذرفون عـليَّ دموعًا حارقة، أمـي وأبي وإخوتي، وأعـود أيضًـا إلى من يحفـرون في يـأسي ليقتلنـي، وهـم يضحكون من أعماقهم.

نعم فأنا في قريتي الراقدة بين الجبل والماء تتحسـس صدرها الضئيل تحت الشـمس البهية لي أصدقـاء قليلون، وأعداء كثـيرون جدًّا، بحكم مـا أتيه به عليهم، وللشـباب فتوتـه وغروره. وما كنـت أتباهى به ليس الذي يشـغل سائرهم، الجسد القوي، والعزوة، والأفدنة المطروحة على يمين النهر، والبنات اللاتي يكتبن الخطابات سرًّا، ويرسلنها مع خالات وعـمات وصديقـات مأمونـات عـلى الأسرار الدفينة، بل مـا تباهيت به شيء آخـر، إنهـا كتبي الفلسـفية التي أمدتنـي بأفكار عميقـة لا يعرفون عنها شيئًا.

كنت أهيم على وجهي بين الزروع حتى أصل إلى شـجرة النبق، التي يربـط أبي فيها جاموسـتنا العجفاء، وحمارنا الذي يعـاني عرجًا خفيفًا في ساقه الخلفية اليمنى، ونعجتين وخروفًا أقرن، وماعزًا واحدة جلحاء.

أجلس عند الجذع وأناجي الفروع بما أعلم ولا يفهمه كل من يعيشون حولي، ويتعاملون معي وكأنني كائن أسطوري جاء من أزمنة سحيقة، لكنه بلا فائدة تذكر، فلا لحمه يؤكل كالدجاج، ولا صوته يطرب كالكروان، ولا شكله جميل كالطاووس، ولا ينقي الأرض من الديدان كأبي قردان. أسطوري لكنه ليس كالعنقاء التي تقاوم الفناء، إنما أشبه بنبات الهالوك الذي يتطفل على أعواد الفول ويمص غذاءها، وتجفل منه حتى البهائم. لكن هل يمكن لنبات أن يكون طائرًا، ولطائر أن يكون نباتًا، هكذا أنا في نظرهم، شيء بلا معنى. شيء فعلًا، لأن هؤلاء لم أضبطهم في أي يوم يتعاملون مع إنسانيتي التي تعبر عنها أفكاري المبهمة.

بعضهم كان يراني إنسانًا متخلفًا، يصر على أن يقول كلامًا لا يُرجى منه نفعٌ. وزميلي في الدراسة حتى نهاية المرحلة الثانوية، والذي التحق بكلية الهندسة في جامعة «أسيوط» التي التحقت أنا بكلية الآداب فيها، أوجعني حين قال لي:

– تحاول أن تعطي أهمية لما تدرسه، وهو عديم القيمة، تقول أشياء معقدة، لكنها تافهة.

وكنت أرد في انفعال شديد:

– أنا أتحدث مع كل شخص على قدر علمه، لكنك لا تريد أن تراني إلا متعجرفًا مغرورًا.

وكان «شديد الدقش»، الذي ترك المدرسة في منتصف المرحلة الابتدائية، يوجعني بكلام يشبه الزلط الذي يحمله على كتفه في بنايات القاهرة الشاهقة ويراها وهي تعلو طابقًا تلو آخر فوق عنقه، وأكثر ما كان يؤلمني هو حديثه عن مستقبلي. كان يقهقه ويقول:

– آخر الفلسفة شيل الزلط.

وينظر إليَّ من طرف خفي ويقول:

– حتى لو اشتغل بالفلسفة فمرتبه في شهر سيكون أقل مما أكسبه أنا في يومين.

وكنت أعزو موقفهم هذا دومًا إلى الحقد الذي يشتعل في نفوسهم، فأنا منذ أن تعلمنا كيف نمسك القلم كنت متفوقًا عليهم في كل شيء، في الدراسة، وإنشاد الشعر، وقراءة حكمة اليوم في الإذاعة المدرسية، وتمثيل الأدوار الصعبة مع فريق مسرحي حصلت به على جائزة من محافظ «سوهاج»، وحتى في الغناء، كان صوتي هو الأحلى بينهم، وكنت لا أبخل عليهم به إن طلبوا مني أن أصدح بأغنية يحبونها، حين كان بعضهم في أول الغرام. وكثيرًا ما طلبوا مني أن أردد مربعات «ابن عروس» كما حفظتها وراء شاعر الربابة.

انتهزوا جميعًا فرصة مرضي الشديد وأنا في السنة الثالثة الثانوية، والذي رأته أمي عائدًا إلى العيون الصفراء التي حسدتني، وتقدموا هم، وتأخرت أنا، ولم يوفر لي مجموعي إلا مكانًا في كلية الآداب، جامعة «أسيوط».

عانيت من آفة تحقير العلوم الإنسانية التي أصابت مجتمعاتنا، ومن هذا التقسيم الساذج للتعليم الجامعي إلى كليات قمة، وكليات قاع. لكن حين درست الفلسفة شعرت بأنني استعدت القمة التي أزاحني المرض عنها، وصرت فوقهم جميعًا.

حاولت يومًا أن أُفهِّمه أن بين الفلسفة والرياضيات علاقات لا تنتهي من الود، لكنه سخر مني قائلًا:

- سأبني العمارات الشاهقة، وأتركك تهذي بأقوالك الفارغة.

حدثته يومها عن فلسفة العمارة، لكنه ظل ذاهبًا برأسه بعيدًا عني، وعلى طرف شفتيه سخرية لاذعة، ثم مضى.

يومها فقط قررت أن أكمل دراستي العليا في «جامعة القاهرة»، لأتميز عنه، وأعد أطروحتي للماجستير والدكتوراه في فلسفة العلوم، لأثبت له أنني كنت وما زلت وسأظل على حق. ورحت أتابع مقالات الفيلسوف الكبير «زكي نجيب محمود» في صحيفة «الأهرام»، وأقول في فخر:

- هذا طريقي، ولو سلكته، فسيلمع اسمي.

وحين يرد على ذهني زميلي الذي صار مهندسًا حديث التخرج، أقول:

- سيقرأ اسمي يومًا في الصحف مكتوبًا ببنط عريض، ويعرف أنني لم أكن أهذي، وقد يأتي ليعتذر لي.

ودسست في جيبي كل الجنيهات التي عرقت بها في غيطان الناس، وجئت إلى «القاهرة» من دون أن أنسى الثآليل التي ملأت راحتي يديَّ من أثر نتوءات اليد الخشبية للفأس، ثم انفثأت، ومات الجلد فصار صلدًا، ألسعه بالنار أحيانًا فلا أشعر بأي ألم، ولا حتى بوخز خفيف.

وحين بدأت الرحلة لم يكن في رأسي أنني سأرى خليلة روحي، هذه التي طالما تقت إليها قبل أن أعرفها.

لكن عقلي كان يقظًا وحذرًا طوال الوقت، وتلك مشكلتي، فالإنسان يحتاج أحيانًا إلى أن يترك لنفسه العنان، ولو ساعة من نهار أو ليل، ولا

يحسب كل شيء بمقاييس يسعى إلى أن تكون دقيقة، وكأنه آلة خوف صماء.

وكان عقلي يقول:

- كيف لمن جاء إلى هنا ليكون أكبر فيلسوف في البلد أن يقترن ببائعة ورد شبه أمية؟

وكعادتي حين أستعمل عقلي لم أفكر هذه المرة في الأسود قبل الأبيض، بل فعلت العكس، وتخيلتني واقفًا أمامها، أعيدها إلى دنيا الحروف، ونجلس معًا نرتبها بعناية، وكلما نجحنا تعانقنا طويلًا، وطالما قلت لنفسي: «سميرة بنت ذكية، وخبرتها في الحياة عميقة رغم صغر سنها، وهذا ليس بالقليل».

وكنت أسعد بكلام عم «عبد الشكور» عنها، حين يصفها:

- الخالق الناطق أحلى حبيباتي، وكان اسمها «سميرة» أيضًا.

ويغمض عينيه قليلًا ويقول:

- نمت مع زوجتي في ظلام كالكحل، وتخيلتها حبيبتي، بل في غفلتي ولهفتي ناديتها باسم الحبيبة، لكن لهفتها وغفلتها لم تجعلها تنتبه، وإلا قفزت من تحتي كأن عقربًا قد لدغها. قبلها كنت أفكر في «سميرة»، استحضرت ملامحها في رأسي كأول يوم رأيتها فيه، وخطفت روحي. ونزل خيالي في صلبي فحملت أم العيال بهذه البنت، التي كلما كبرت صارت «سميرة.. القديمة .. حلوة بهية مثلها.

وتمنيت لو رأيت «سميرة» القديمة من كثرة حديثه المفعم بالشغف والشجن عنها، كلما سنحت له الفرصة، واطمأن إلى أن زوجته خرجت

لشراء ما يعوزه الدار، أو مشغولة في المطبخ الضيق، يملأ أذنيها وشيش البوتاجاز، وقرقعة الأواني فيطغيان على السماع، وتملأ أنفها روائح الطبيخ النفاذة.

وكان يأخذ راحته في الكلام أكثر إذا كانت هي قد فتحت المذياع ليسليها بالأغاني القديمة، التي تحبها. وقتها يشحن حنجرته بكل ما في جسمه من طاقة، ويثرثر بلا انقطاع، ولا يخفي شيئًا، بل يستمتع حين يحكي نزواته، قدر استمتاعه حين يروي مآثره.

تغيم عيناه المستسلمتان للزمن، ويقول:

- لم تمتعني أي منهن زي «سميرة»، كانت امرأة كما يقول الكتاب.

أضحك وأسأله:

- وهل لهذا كتاب؟

يقهقه حتى أشعر أن بقايا أسنانه ستتساقط على حجره، ويواصل:

- أهم من كتب الفذلكة التي تدرسها يا حبة عين أمك.

ثم يسكت فجأة ويشرد قليلًا، ويعود:

- يقولون: «إذا بليتم فاستتروا»، لكنني أحكي نزواتي لأتطهر.

وأقهقه وأقول:

- أو ربما يكون التاجر قد أفلس، ويبحث في دفاتره القديمة، ينظر إلى ركبتيه الهشتين ويصرخ: كل وقت وله أذان.

وأسأله عن «سميرة» القديمة، فيتوه ويعود صافي الذهن:

- قمر وغاب، ولا أعرف في أي سماء اختفى.

- ألا تأتيك أخبارها؟

- انقطعت من سنين طويلة.

ويرفع كفيه نحو السقف الخفيض:

- يا رب، إن كانت حية فأعطها الصحة وراحة البال، وإن كانت قد ماتت فارحمها وأسكنها فسيح جناتك.

(2)

كان وصف «عبد الشكور» للفلسفة بالفذلكة يثير حنقي، وأكبح جماح نفسي حتى لا أمد أصابعي العشرة إلى رقبته وأخنقه. أكظم غيظي، وألوذ بصمت طويل، وحين أختلي بنفسي في حجرتي البائسة، أستعيد كلامه فيجرحني:

- لم يكن يقصد إهانتي، لكنه كان يذكرني دومًا بأولئك الذين سخروا مما أدرس، ونعتوني بأنني رجل بلا مستقبل. وحين كنت أقول لهم:

-الفلسفة أم العلوم.

كانوا يقهقهون وهم ينزعون قشر القصب بأسنانهم الحادة، ويقولون:

- تقصد جدة العلوم.

وبعضهم تطوع يومًا وفسَّر لي كلامهم:

- الفلسفة قديمة وعجوز خربة أشرفت على الموت.

وذات يوم صرخت فيهم.

- الفلسفة لا تشيخ، ولا تموت يا جهلة.

فقابلوني بمزيد من الضحك، وقال أحدهم:

- أعظم البشر يشيخون ويموتون، ولا تتوقف الدنيا.

وأوجعت حنجرتي، وأرهقت ذهني في شرح دور الفلسفة في فهم الذات والعالم والكون وصولًا إلى الله، لكنهم كانوا يهربون من كلامي، ويردون في نفس واحد، وكأنهم قد اتفقوا على ما سينطقون به:

- لن تنطلي علينا محاولاتك تزيين بضاعتك البائرة.

كنت أتركهم يسرفون في سخريتهم وأهيم على وجهي في الزروع، وأنا أحضن فلسفتي المسكينة، وأهدئ خواطرها المضطربة، وأهمس في أذنها بامتنان شديد، بأغنية «فريد الأطرش» الذي أعشق ألحانه وأغانيه: «أحبك مهما قاسيت منك، ومهما الناس قالوا عنك».

وأنتظر أن ترد عليَّ، وتربت كتفي، أو تمسح دموعي، لكنها تبقى على حالها صامتة.

هنا في غابات الأسمنت لا أجد زروعًا أهيم على وجهي بين خضرتها اليانعة، إنها شوارع لمدينة ضخمة، يتخالط فيها البشر والسيارات بمختلف أنواعها وأحجامها وكلاب ضالة وعوادم وروائح نفاذة تنبعث من المطاعم والمسامط والمخابز ومحال الحلويات والمقاهي.

المقاهي، إنها المكان الأقرب هنا إلى ما كنت فيه هناك، الناس الجالسون في أنس، والشفطات والشهقات، البخار والدخان، الوجوم والصخب، الأسى والضحكات. شيء قريب مما تركته خلفي، ففي قريتنا مقهى صغير على أول الطريق، أقل فخامة من تلك المقاهي التي تتتابع في شارع «بور سعيد».

وذات مساء عرفت طريقي إلى المقهى. جلست على كرسي ملقى في ركن نصف مظلم، وطلبت شايًا أسود. وساق الهواء الذي يدخل من الأفاريز المجاورة دخانًا كثيفًا إلى أنفي، فتحرك شيء داخلي.

بعد أيام طلبت حجر معسل «سلوم» مع الشاي الثقيل، وجلست أنفث في تلذذ، وخيوط الدخان المتماوج تصنع أمامي أشكالًا وألوانًا، وتستقر فجأة على وجه «سميرة»، ولا تتغير بينما رأسي يغيب.

نعم «سميرة»، تأتيني هنا، تتشكل كجنية شقية، تدنو وتبتعد غير عابئة بلهفتي. وكنت أغمض عيني وأناديها، لكنها لا تجيب أبدًا.

في يوم كنت جالسًا غارقًا في دخاني وشجني كعادتي، وهي تتشكل أمامي في سحب الدخان كعادتها، لكنها وبلا مقدمات لم تعد تلك الجنية الغائمة التي تظهر لي كطيف خفيف، بل جسد إنسية تقف أمامي.

فركت عينيَّ، فوجدتها تقف أمامي، وتشير لي بطرف سبابتها، فقمت إليها مسرعًا، ومقلة على وجهها الوردي، وأخرى على سلة الورد الفارغة.

كنت قد انتزعت كل قدرتي على الابتسام، وأطلقتها في عينيَّ ووجهي وشفتيَّ، لكنها لم تبادلني الابتسامة، بل سألت في حياد كأنني لا أعني لها شيئًا:

- شفت «عزازي»؟

استرددت فرحتي العابرة من الهواء الفاصل بين وجهينا، وكسيت ملامحي بجدية، ورددت عليها في حياد:

- لم أره.

وأعطيتها ظهري، وعدت إلى الشيشة، وسحبت نفسًا قويًا من فرط خيبتي، فامتلأ صدري بكل الدخان المحترق فوق الماء، وتحت غطاء الزجاجة السميكة، وسعلت بقسوة، حتى ظننت أنني استبدلت

صدري الفتي السليم بصدر «عبد الشكور» الخرب، والذي يتباهى بأنه دَخَّن كل أنواع الكيوف، ويقول في ثقة متناهية:

- لا يوجد صنف على وجه الأرض لم أجربه.

حين غادرتني تهز سلتها التي تستقر روائح الفل والياسمين في جنباتها، وجدت الفرصة سانحة لي كي أفكر فيما هو أولى بالتفكير، فالنقود التي تبقت في جيبي لا تكفيني سوى شهرين على حد الكفاف، وبعدها لا أعرف كيف أبقى هنا بالقرب من أحلامي؟

(3)

ما بوسع الفيلسوف الصغير أن يعمل في مدينة يظن أهلها أنهم في غنى تام عن التفلسف؟

دارت برأسي أحلام، وامتزجت بحبال الدخان المبعثرة التي أصنعها أمامي، فرأيت نفسي جالسًا على مكتب يوازي جدارًا، يحمل لوحة زيتية، تحوي رأسًا مفصولًا عن جسد، وقطرات دم تنداح وتسيل حتى تكاد تلطخ البرواز الخشبي الأملس.

رحت أسمع كلامًا بليغًا شنفت له أذني، عازلًا إياها عن طرقعة قواشيط الدومينو والطاولة ونقرات النرد. كأني أسمع أبيات شعر من فم مدقوق كفوهة صنبور صغير لشاب نحيف في عينيه ألق وفتنة. وآخر يأخذ رأي شخص يجاوره في العمود الذي كتبه بُعيد الفجر. وثالث يصحح مكسور اللغة وركيكها.

كانوا يتكلمون معي بامتنان وكلامهم غطى على هذه الأصوات المزعجة، التي يصنعها مرتادو المقهى، لا سيما هذا الرجل البدين ذو الأسنان السوداء والأنف المفرطح.

وجدت نفسي أنتفض من مكاني، وألقي ثمن ما احتسيت وما نفخت على الطاولة التي تهتز كغرفتي. قمت لأكمل أحلام يقظتي على سريري المتهالك.

نعم أحلام، في النهار والليل، وكوابيس أيضًا، تجثم على نفسي، وتجعلني أنتفض مذعورًا، حين أتخيل أنني جالس أمام أوراق بيضاء، وعاجز عن أن أخط فيها حرفًا واحدًا، بينما يقف على رأسي رجل طويل بدين، عيونه تبتلع نصف وجهه، وشعره المجعد واقف كشوك قنفذ، وكفه التي تشبه «مطرحة الخبيز» ممدودة نحوي، وهو يقول:

- رئيس التحرير يبلغك أن أمامك دقيقة واحدة لتسليم ما كتبت قبل أن يدفع الجريدة إلى المطبعة، فإن تأخرت فلا مكان لك هنا.

أقوم مفزوعًا، وأجلس القرفصاء، وفي عيني دموع، أحملق في الفراغ مستعيدًا كابوسي المتكرر، وتسكن رأسي كآبة سوداء لا تذهب عني إلا حين يأتيني وجه «سميرة»، وأغرق في التفاصيل القليلة التي دارت بيننا.

وقررت ذات يوم أن أواجه كابوسي، أحمل كل أسلحتي القليلة وأنزل إليه في ساحة الوغى، كما يقولون، فاستيقظت مبكرًا، وجريت إلى الحمام الضيق، لأحشر جسدي بين جدرانه الصفيح، ومعي بستلة المياه التي ملأتها بالأمس من الحنفية العمومية، وحملتها تنز على كتفي حتى أغرقت قميصي، ففردته على منشر الغسيل المتمدد أمام غرفتي بطول السطح، لكنه لم يجف إلى الآن.

ورغم الصقيع الذي كان يصفع الهواء حولي، ويتسرب إلى عروقي، لم أسخن المياه على وابور الشرائط الراقد في ركن الغرفة، بل تركت الماء البارد ينسكب فوق رأسي كما يحلو له، فقد كنت أشعر بحاجتي إلى أقصى درجة ممكنة من اليقظة.

كسوت عريي بأفضل ملابس عندي، وخرجت قاصدًا مؤسسة «دار الهلال». حاذيت جدارها العريض العالي، ودخلت من الباب الرئيسي

في شارع «المبتديان»، ووقفت صامتًا أمام رجال الأمن الجالسين خلف مكتب طويل.

كانوا مشغولين، أحدهم يتحدث في الهاتف، والآخر يدون كلمات في دفتر طويل سميك، وثالث يطالع مجلة «المصور». فرغ الأول من مكالمته، فنظر إليَّ متجهمًا وقال:

- خير؟

تلعثمت قليلًا، ثم امتلكت زمام نفسي، وقلت:

- أنا «رفعت عبد الحكيم» طالب دراسات عليا في «جامعة القاهرة»، وأريد مقابلة السيد الأستاذ رئيس التحرير.

ارتسمت ابتسامة خاطفة على طرف شفتي الرجل، وسألني باقتضاب:

- بخصوص؟

- أبحث عن فرصة عمل، كمحرر.

نظر إلى زميله، ورفع رأسه ومسح السلم العالي المؤدي إلى جوف المبنى بعينيه، وعاد إليَّ دون أن يتخلى عن تجهمه، وقال:

- إصدارات الدار كثيرة، ففي أي منها تريد أن تعمل؟

بدا كلامه مشجعًا، رغم كل شيء، وسرت في عروقي دفقة أمل، وتذكرت ما بيني وبين مجلة «الهلال» العريقة من ألفة وامتنان، فقلت على الفور:

- «مجلة الهلال».

اتسعت الابتسامة المصطنعة على شفتيه، لكنها اكتست هذه المرة بسخرية مكتومة، وقال:

- اترك بياناتك مع طلب تدريب باسم رئيس مجلس الإدارة.

- أي بيانات؟

- سيرتك الذاتية، وصورة من مؤهلك الدراسي، وبطاقتك الشخصية.

لم تكن معي أي أوراق، فقلت له مدفوعًا بأمل لا أعرف من أين انهمر على فؤادي بغزارة:

- هل يمكن أن أحضر أوراقي غدًا؟

هز رأسه في لامبالاة وقال:

- طبعًا .. طبعًا.

ونظر إلى الباب الخارجي بطرف عينه، فدفعت قدميَّ نحو الشارع، وقبل أن أنعطف يسارًا لأعود إلى حيث أتيت، استدرت فوجدت الرجل الذي كان يقرأ المجلة، قد نحاها جانبًا، وراح ينظر إلي بعطف شديد.

في اليوم التالي أبت موظفة شئون الطلاب أن تمنحني ملفي كي أصور منه ما أريد إلا بموافقة وكيل الكلية، فذهبت إليه ولم أجده، وسألت عنه فقيل لي إنه لم يأت اليوم. عاودت الذهاب في اليوم التالي، والذي تلاه، حتى قابلته، وتحقق لي ما قصدته، فعدت مسرعًا إلى «دار الهلال»، وتركت خلفي محاضرتين مهمتين.

لم أجد الرجل الذي ودعني بعطف، ولا ذلك الذي منحني جزءًا من طاقته الدفينة الساخرة، إنما الثالث، ذو الوجه المستدير، والذي لم يلتفت إليَّ قط، كان غارقًا في دفتره المسطور.

بـدا عليه أنه لم يرني في المرة الفائتة، ولم يسـمع حـواري مع زميله، إذ بدأ من نقطة الصفر:

– خير؟

– اسمي «رفعت عبد الحكيم» ..

وسردت على سـمعه ما دار قبل أيام، فهز رأسـه، وأخذ الملف مني، وكتب عليه شيئًا لم أتبينه، ثم وضعه إلى جانبه. مددت عنقي لألتقط أي شيء ممـا دوَّنه، بلا فائـدة، ولمحني أقف على أطـراف أصابعي، وعيناي ذاهبتـان إلى الملـف، فـأراد أن يريحني، فرفـع الملف في وجهـي فقرأت: «مكتب السـيد الأسـتاذ رئيس مجلس الإدارة ورئيـس التحرير»، ويبدو أنه رق لحالي فسألني:

– هل تعرف أحدًا من كبار الصحفيين هنا؟

– لا.

– ولا أحدًا من كبار الكتاب في البلد؟

– لا.

– هل أحد من أقربائك وزير أو مسئول كبير أو رجل أعمال أو قاض رفيع المستوى؟

– لا.

وساد صمت بيننا، قطعته أنا في ثقة:

– أنا أعوِّل على حبي للكتابة وما حصلته من معارف شتى.

لم يرد، فواصلت:

– أتابـع «الهـلال» وأقرؤها من الغلاف إلى الغلاف، واشـتريت أعدادها القديمة كلها وطالعتها، وقرأت مئات الكتب في الفلسفة والأدب والسياسة والدين.

أشرق وجهه بابتسامة عريضة، وقال:

– كل هذا سيفيدك إن دخلت هذا المكان، المهم أن تدخل.

امتقع لوني، وعاجلته بالسؤال:

– أليس هذا في يد رئيس التحرير؟

– بلى.

– الطلب في يدك، هل سيرفضه؟

هز رأسه وهو يسترد ابتسامته، وقال بوجه محايد:

– سيوافق، إن شاء الله.

ونظر إلى الخارج، فمشيت نحو الشارع وأنا أسمع كلمته الأخيرة:

– ربنا معك يا بني.

انتظـرت طويـلًا بـلا جـدوى، وعدت مـرات ومرات لأسـأل عن مصـير طلبي، حتـى إن موظفي الأمن حفظوا شـكلي، وعرفوا سـؤالي، فكانوا يجيبونني قبل أن أنطق حرفًا واحدًا:

– ليس هناك جديد.

وخرجـت مـن عندهـم ذات يـوم، فقدمـت طلبًـا آخـر في مؤسسـة «روز اليوسف» ورحت أنتظر، حتى نفدت نقودي تمامًا، ولم يعد الانتظار ممكنًا.

(4)

باغتني أول الشهر، وساءلتني عينا «عبد الشكور» عن الإيجار، لكني هربت منهما، وقلت له ذات مساء وأنا أهبط الدَرج الخشبي المتحجر أو الحجري المتخشب:

- أنتظر فلوسًا من البلد.

لكنه ضغط عليَّ بلا رحمة:

- من سيأتي إليك؟

واريت ناظريَّ عنه وأجبت:

- تحويل بريدي.

شخلل داخل صدره نَفَس مكتوم وقال:

- ربنا يسهلها.

لم يكن في حاجة ماسة إلى جنيهاتي القليلة، فأولاده يسرحون على أرزاقهم كل يوم، ويعودون في آخر النهار ليرموا في حجره ما حصدوه، وهو يقول:

- لو تركت فلوسًا في يد الشاب حتمًا ستفسده.

وينظر نحو الزقاق ويقول:

- هنا شباب يكسبون جيدًا، لكن ما يجمعونه يصرفونه كله على البانجو والحشيش والبرشام والخمور الرخيصة.

ولولا أنه يريد أحدًا يتسلى معه في جلسته الطويلة، ما جاد عليَّ بكوب الشاي. كان بخله ظاهرًا، لا يحتاج إلى برهان، ولم يكن هو يداري هذا، بل كان يعتقد دومًا أنه يفعل الصواب. يتوه قليلًا ويقول:

- أنا أدير دولة بحالها .. جمهورية عبد الشكور، ولولا حرصي لضاع أولادي مثل أغلب عيال هذا المكان البائس.

ويتذكر أن هناك شيئًا ناقصًا في كلامه وحاله، فيتممه سريعًا، من دون أن يعطيني فرصة للتعقيب:

- إذا كان على التعليم، خليتهم يفكوا الخط، ثم يسرحوا على أرزاقهم .. أعرف خريجي جامعات وقاعدين في البيوت.

ويتذكر أنني أيضًا من هؤلاء الذين يهجو حالهم في نعومة، فيستدرك:

- لا مؤاخذة يا بني، إنت حالتك مختلفة، غاوي علم.

لكنني حين عجزت عن دفع إيجار الغرفة مع انتصاف الشهر، قال لي:

- لازم تدور على شغل.

وجدت نفسي أرد على الفور:

- تقدمت إلى شغل، ومنتظر الرد.

رفع وجهه، وصوَّب عينيه بقوة نحوي، حتى شعرت أنه قد عرَّى كل ما أستره داخلي، وسأل:

ـ أي شغل؟

استعدت ما جرى معي في مشهد واحد، تلاحمت فيه التفاصيل، فاسودت الصورة تمامًا، لكني ابتلعت ريقي وواصلت:

- محرر صحفي.

صمت برهة، ثم قال:

- مشوار طويل حتى تمسك بإصبعيك جنيهًا واحدًا.

ولم أجد ما أرد به عليه، ولا أعرف من أين أتى بما نطق به، لكنه لم يدع حيرتي تطول، وواصل كلامه:

- لي صديق من مريدي «الطريقة الأحمدية» كان يعمل في مطبعة «دار الهلال»، وكنا نلتقي أسبوعيًا في مسجد «السيدة زينب»، وبعد الحضرة، نخرج لنجلس على المقهى، وطالما حكى لي عن شباب جروا حتى انقطعت أنفاسهم وراء الأخبار، وقرءوا كتبًا بعدد شعر رءوسهم، لكن بعد سنين طويلة، تم تعيين قلة منهم، وأغلبهم يئس وانسحب.

التقطت من كلامه أن له صديقًا هناك، فامتلأ وجهي بفرح خفيف، وقلت له:

- هل يمكنني مقابلة صديقك هذا؟

مصمص شفتيه وقال في أسى:

- تعيش انت.

واستيقظ الصمت، وأطبق علينا من جديد، هو كان يفكر فيما لا أعرفه، وأنا كنت غارقًا في أحزان عوزي، ولم يتبق في جيبي إلا ثمن

عشائي، وبعدها لا أعرف ماذا سأفعل؟ لم يطل الصمت، فسرعان ما تلوث بصوت «عبد الشكور» الأجش، حين سألني على غير توقع مني:

- تعرف تغني؟

ألجمني سؤاله، فلا ارتباط له بما كنا نتحدث فيه، وسرت دفقة من حيرة في نفسي، لكنني تحاملت عليها وأجبته:

- كلنا نغني حين نفرح، وحين نحزن.

هز رأسه في ضجر:

- لا أقصد هذا، بل أريد معرفة حلاوة صوتك في الغناء.

- لمَ؟

- خذني على قدر عقلي، واستجب لما طلبته منك.

زادت دهشتي، وكتمت اشمئزازي داخلي، وسألته:

- أي أغنية تريدني أن أغنيها؟

طوح يده في الهواء، وقال:

- ما يعجبك.

أطرقت صامتًا لبرهة، وراق لي أن أغني «الأطلال» التي أعشقها، فأغمضت عيني، وانطلقت في الغناء، متحسرًا على أطلال حلمي الذي يتداعى الآن، وقد تضطرني الفاقة إلى أن أعود إلى قريتي خالي الوفاض.

غنيت أول مقطع في القصيدة، وفوجئت بـ«عبد الشكور» يصفق وفي عينيه دموع، ثم مد يده إلى يدي، وأخذها، وداس عليها، وقال:

- صوتك مجروح مليء بالحنين.

قابلته بوجوم، وأنا لا أزال متأثرًا بالحالة التي صنعها غنائي الشجي، لكنني اضطررت إلى أن أدع شجني يتبخر حتى يزول وأنا أنصت إلى أسئلته المتدفقة: «أين غنيت من قبل؟ هل سمعك أحد؟ ماذا قال لك الذين استمعوا إلى غنائك؟ هل حلمت في يوم من الأيام أن يطرب الناس لصوتك؟ أتوقعت أن تجني من صوتك مالًا أم مجدًا أم كليهما؟

ضحكت رغم وجعي، وسألته:

- ماذا تستفيد من كل هذا؟

- أريد لك أن تكسب ما يجعلك تعيش هنا.

لم أرد، فواصل هو:

- أنا أعلم أن جيبك ليس فيه سوى قروش، وأنك إن لقيت عشاءك فلن تجد إفطارك، وإن وجدتها سيأتي موعد الغداء ليجدك تتلوى من شدة الجوع .. أنت غلبان زي حالتنا، وإلا ما سكنت في هذه المنطقة البشعة .. غلبان اليوم لكن غدًا لا، ستضحك لك الدنيا، وتفرش تحت قدميك الحناء.

تنحنحت، وأنا أشعر أنه قد عرى كل ما أخفيه، وقلت له:

- لم أجد سكنًا في «بين السرايات» ولا أي من الأحياء التي تحيط بالجامعة، وجئت إلى هنا وراء وصف واحد من بلدنا.

- واحد من بلدكم .. هاهاها، لا بد أنه عامل تراحيل من الذين كانوا يرمون أجسامهم ككلاب السكك تحت كوبري «زينهم» حتى يتعطف عليهم أحد ويطلب منهم شغلًا مقابل جنيهات.

- كلاب السكك!

- لا تؤاخذني، فأنت لم ترهم، فلم يعد أحد الآن يقف هناك وعيناه تكاد تنط من رأسه بحثًا عن أي زبون، لكن إن عاندت ولم تسمعني فلن يكون أمامك إلا أن تعود لأبيك أو تمشي في الطريق الذي سلكه رجل بلدكم الذي دلك على هذا المكان العفن.

- عامل تراحيل؟

- حتى هذه قد لا تصلح لها.

- لكنني أتيت لأصير فيلسوفًا وكاتبًا عظيمًا.

- يمكنك تحقيق حلمك لو بقيت هنا .. ولن تبقى إلا إذا وجدت ما تبقى به، وهذا يحتاج إلى أن تطيعني.

شعرت بأنه يغلبني، فلذت بالصمت، وتطلعت إليه، فقرأ في عيني انكسارًا، ووجدها اللحظة المناسبة كي يضرب ضربته، فقال على الفور:

- تحت الكنبة يوجد صندوق، انزل هاته.

أنخت ظهري، مادًّا بصري في العتمة الخفيفة التي تشقها خيوط نور باهت من جنباتها، وأذني تقتحمها جلبة آتية من الزقاق، حيث يتشاجر شابان، ويتبادلان السباب البذيء، والصراخ والوعيد، بينما صوت ثالث متعب يحاول أن يهدئهما، من دون جدوى، وينهر في الوقت نفسه امرأة راحت تولول على مقربة من المعركة.

توقفت منشغلًا بما يجري في الخارج، لكن «عبد الشكور» قال:

- هذا هو المعتاد، فلا تتوقف عنده.

أكملت ما بدأت، فدفنت رأسي تحت الكنبة، ومددت يدي وراء ما ذهب إليه بصري حين تلمس مسار الضوء، فاصطدمت أطراف

أصابعي بجسم معتم صلب، سحبته في هدوء، فملأ التراب أنفي. رفعته إلى «عبد الشكور» وكان هذا الشيء صندوقًا خشبيًّا قديمًا، فأشار إلى مكان بجواره، لأضعه فيه، ووضعته. نفخ هو فطار الغبار وعبأ المكان، وزاد النور شُحًّا.

رفع الدرفة العليا فانفتح عن دف محشو إطاره بحروف من الخط الكوفي، وإلى جانبه كراسة عليها غلاف أخضر قاتم.

التقط الدف وهزه فصلصل، سلمه إلى يده اليسرى، ونقره بأصابع يده اليمنى، ثم انطلق يضربه، وهو يطوح رأسه، وشفتاه مزمومتان، تكتمان صوتًا يريد أن ينطلق، ووجهه اكتسى بمسحة حزن طارئ، وسقطت دمعتان على حجره.

وضع الدف والتقط الكراسة وفتحها، ومدها إليَّ قائلًا:

- اقرأ وسمعني.

كانت أشعارًا مكتوبة بنسخ بديع، هي مدائح دينية في الرسول صلى الله عليه وسلم، وجميل صنع الله، والنفس المطمئنة ومدارج السالكين.

قرأت كثيرًا منها وهو يتابعني في صمت تام، حتى إنه لم ينتبه إلى قرقعة الأواني في المطبخ، وسقوط شيء على الأرض، وفجأة خرج عن سكوته:

-كنت أحفظه عن ظهر قلب.

- ... وهل هذا خطك؟

- لا، خط صديقي المطبعجي، رحمة الله عليه.

- خطه جميل.

- صوتي كان أجمل، قبل أن تتورم حنجرتي، وتُجرح حبالي الصوتية بعد أن سكنتها بثور، كحبات الأرز، عجز الأطباء عن علاجها.

يشرد قليلًا ويعود:

- أحدهم سخر مني حين رآني حريصًا على صوتي، لأنه لم يكن يعلم أنه رأسمالي في هذه الحياة، خاصة أن أولادي أيامها كانوا صغارًا.

وعاد مرة أخرى إلى شروده، وتركني غارقًا في هواجسي، الأرض تميد من تحتي، وقلبي معلق بآمال كاذبة. وفجأة وصل «عبد الشكور» إلى ما يريد وما كنت أظنه وأخشاه في آن، نظر في عيني طويلًا وقال:

- صوتك جميل، ويمكنك أن تكمل طريقي.

- أنا؟!

- أنت.

- الأولى بإكمال طريقك واحد من أولادك.

- أصواتهم عكرة، حاولت معهم وفشلت.

- لكنني ...

- ما أريده لك لا يعارض ما تريده لنفسك.

-بل سينسفه من أساسه.

- لا تتعجل الحكم، سأعلمك الضرب على الدف بطريقة تهز القلوب، وعلى قدر ما يسعفني صوتي سأدربك على الإنشاد، كيف تنقل صوتك من الجواب والوسط إلى القرار .. هذا لن يستغرق أكثر من أسبوع، وبعدها ستعرف طريق محطة القطارات.

ومرت أمام عيني صور متتابعة: كتب الدراسة التي يجب أن أشتريها، وأبي الذي لا أعرف كيف يعيش من قراريطه القليلة مع مرضه العضال، وبطني الذي لا أعرف غدًا كيف أملؤه حتى ولو بأرغفة جافة، ثم جاء وجه «سميرة» وغطى كل الصور. ووجدت نفسي ألين:

- القطارات ستبعدني عن هنا.

-هي تذهب وتعود.

- كيف أوفق بين الدراسة وبين ذهاب القطارات وإيابها؟

تململ في جلسته، ثم هز منكبيه وقال:

- الأتوبيس هو قطار المدينة، ومحطة «أبو الريش» خلفنا، منها تبدأ وإليها تعود .. سوق تمشي ولا تنتهي.

- لكن هذا تسول لا يليق بي.

بان في وجهه غضب، وشخلل صدره، ثم بصق على الأرض، وقال:

- أنت ستبيع السعادة.

قفز إلى رأسي كل ما قرأته عن السعادة، تلك القيمة الرائعة التي يرومها كل البشر، ولا يبلغها إلا أقلهم. وبدوت تائهًا والحيرة تأكلني، وعشرات الأسئلة تتزاحم في خاطري، ويصفع بعضها بعضًا، لكني جاريته:

-السعادة، لا تباع ولا تشترى.

كل شيء صادفته في حياتي كان يباع ويشترى، السعادة، الكرامة، وحتى البشر أنفسهم.

- منطق غريب، ولا أعتقد فيه، فقد صادفت في حياتي كثيرين لديهم استعداد أن يدفعوا حياتهم ثمنًا لحريتهم وكرامتهم.

- هو منطق الدنيا التي عشتها.

- عمومًا، أنا عشت دنيا مختلفة.

- دنياك تلك كانت هناك في بلدك، أنا هنا في الزحام، ولا أحد لديه وقت ولا حيل ليبحث عن المعاني.

- هذا كرب وبؤس.

- الكرب الأصعب هو الجوع.

وكنت بالفعل أعاني من فرط الجوع، فابتلعت ريقي، بينما أنفي تقتحمه رائحة الطبيخ القادمة من الداخل، ووضعت يدي على بطني، وشعرت بدوار، لكني تماسكت، ووقفت وقلت:

- أستأذن يا عم، نصف ساعة وسأعود.

ألصق أصابع يده الخمسة، في إشارة إلى استمهالي، ونادى بأقصى ما يستطيع:

- يا أم العيال.

جاءت وهي تمسح يديها في فوطة مهترئة، ووقفت في بقعة نور، تحت اللمبة المعلقة في السقف بلا عناية، وانتظرت أوامره:

- خَلَّصتِ؟

- على وشك.

- لما يجهز هاتي آكل لقمة أنا والأستاذ رفعت.

بدا على وجهها اندهاش، عرفت سببه فيما بعد، ولحقها هو قبل أن تنطق، وأشار إليها أن تنصرف، فغطست في عتمة الجب المؤدي إلى المطبخ. فلما ابتلعها الظلام تمامًا، عاد إلي بعينيه، وقال:

– حتى يصير بيننا عيش وملح.

بعد امتلاء بطني، أصبح الطريق مفتوحًا أمامه كي يدربني ساعات طويلة، ثم أعطاني الكراسة وقال:

– احفظها على مهلك، تكفي قصيدتان أو ثلاث كي تبدأ.

(5)

ذهبت إلى الجامعة في اليوم التالي مرهقًا، فقد قضيت الليل في حفظ المدائح الدينية، ومعانقة صورة «سميرة» بين السطور. لم أذهب إلى قاعة المحاضرات، بل إلى المكتبة لأسأل عن كتب حول السعادة، التي سأكون تاجرها.

الغريب أنني وأنا أنتظر حضور الكتب كنت أشعر بالبهجة، فلما جاءت الكتب كنت أستمتع بالتهام سطورها، وأشعر أن آلامي تتراجع حتى تتلاشى، والضغوط القابضة على حياتي تنفك.

لم أكن أعرف وقتها لماذا أنا سعيد؟ هل هي لذة القراءة؟ أم لأنني سأبقى هنا غير جائع جانب زقاق تمشي فيه «سميرة»، وردهات تؤدي إلى قاعات الدرس، وشوارع تتراص فيها مقاهٍ صرت مؤتلفًا معها.

ولم أكن أعرف ما إذا كانت سعادة قصيرة، سرعان ما ستتبخر، أم مقيمة ستبقى معي إلى الأبد، ما إن تفتر حتى تعود عفية من جديد.

وقطعًا لم يرد على ذهني في هذه اللحظة أن أبحث عن تفسير لما أنا فيه عند فلاسفة اليونان أو عند «الكندي» و«مسكويه» و«أبو بكر الرازي» و«إخوان الصفا»، بل بحثت – ويا للغرابة! – عن كل ما أشعر به وأتوقع أن يجري لي عند «عبد الشكور».

لم أكن حتى هذه اللحظة قد صادقت أحدًا من زملائي، أجلس بينهم صامتًا، وأمضي على الحال نفسه، ولا أرى بينهم سوى هدفي، يحط على

السبورة، وعلى وجه الأستاذ الذي يقف أمامها، وعلى رءوس ووجوه الجالسين إلى جواري، وفي طرقات الكلية حتى بابها، ومنه إلى باب الجامعة، وفي الشارع حتى غرفتي المعلقة فوق بيوت متهالكة.

وهذا الانطواء منحني ساعات طويلة كي أقرأ كثيرًا في هذا اليوم عن «السعادة»، وعدت آخر النهار، وأنا موقن بأن ما أنا مقدم عليه ليس تجارة السعادة ولا صناعتها، بل هو مجرد تحايل على تحصيل أي رزق، طريق سأسلكه لا يختلف عما يسير فيه «أبو عوف» و«حسونة» و«عزازي» و«عاطف»، بل هو الطريق الأسوأ بينهم جميعًا، لأني أستغل شيئًا ساميًا وهو «الدين» في تجارتي التي سأبدؤها في الغد، من دون إبطاء.

وهكذا بدأت السعادة، التي كانت تغمرني وقت أن كنت جالسًا ورأسي مدفون في صفحات الكتب، تتبعثر وتدوسها خطواتي الوئيدة على كوبري الجامعة، والنيل كان يشهد على ما أنا فيه من أسى ولوعة.

وانقبضت نفسي حين وردت «سميرة» على خاطري وهي تراني أقفز في الأتوبيسات، فمي يغرد، ويدي ممدودة لتلتقط ما يجود به كل من حركت وجدانهم ولو لمسافة ضئيلة، أو من رقوا لحال شاب يطوح بين عرق الأجساد المكدودة.

كنت قبل الأمس أرى نفسي واقفًا على تل مرتفع وهي ترنو إليَّ، أنا الفيلسوف الصغير الذي يحلم بأن ينقش على جدار الزمن كلمات لا تغيب. اليوم سأكون متسولًا بالجمال مثلها، وعزائي الوحيد أنني أكمل مشوار أبيها، وكل فتاة بأبيها معجبة.

ووجدت نفسي أحصي الحافلات التي تمر بها، وأحملق في ركابها المحشورين وعيونهم تطالع الشوارع ليسلوا أنفسهم قليلًا فيتغلبوا على معاناة الإشارات البطيئة والشوارع المزدحمة وأبواق السيارات التي تصم الآذان.

عند إشارة مدخل «قصر العيني» وجدت «عزازي» يتقافز بين السيارات وعلى ساعده كرتونة المناديل، ثم ينحني ليتلقط الجنيهات القليلة، وعرق الظهيرة راقد على خديه وجبينه، متوحدًا مع الغبار على ياقة قميصه الأخضر الخفيف.

لوحت له بيدي، فجرى نحوي مرحبًا:

- أهلًا يا أستاذ.

هذه المرة لم يسعدني ما قال، فالأستاذ سيكون بعد ساعات عالة على قروش الغلابة، ورأسه المرفوع في زهو، سينخفض أمام الجيوب شبه الخاوية.

وصلت إلى محطة مترو «السيدة زينب» لأمر من النفق الذي يتمدد تحتها أمام أقدام العابرين نهارًا وحتى ينتصف الليل ثم يصير مأوى لأطفال الشوارع والمتسولين والمدمنين، ورأيت القطار الأزرق الزاهي يمرق في خيلاء ليغوص تحت الأرض في اتجاه محطة «سعد زغلول» وراقت لي فكرة، لكن «عبد الشكور، الذي قابلني بوجه باسم عند مدخل البيت قال لي:

- صعب أن يتركوك تلتقط رزقك في المترو .. أعرف أن عيون الشرطة هناك مفتوحة عن آخرها، والشركة الفرنسية التي تديره تمنع هذا.

ضايقنـي كلامه، فرحلة واحدة في المترو بـين «حلوان» و«المرج» قد تغني عن مائة أتوبيس، وأنا في حاجة ماسـة إلى وقت أمنحه لدراسـتي. وشعر هو بتبرمي، فقال:

- عمومًا جرب، وخذ حذرك.

والتفت عن يمينه وأشار إلى دولاب صغير، درفته اليمنى مكسورة، وقال:

- هات الجبة والقفطان والعمة.

مشـيت نحو الـدولاب بخطوات متثاقلـة، فتحت الدرفـة فزعقتْ كأنني طعنتها بسـكين، وطار الغبار على رأسي. وجدت الجبة والقفطان مطويـين داخل كيس بلاسـتيكي فوقهـا طربوش أحمر وشـال أبيض لم يفقد نصاعته، وبين الطيات تفوح رائحة النفتالين والغبار.

أعطيته ما أحضرت له، فمسحني بعينيه وقال:

- طولكَ طولي.

لم أفهم ما قال، لكنه عاجلني:

- لا يمكن للناس أن تسمع مدائح من شاب يرتدي بنطالًا وقميصًا.

اكتسـى وجهـي بضيـق شـديد مـن الصعـب إخفـاؤه، بـل نفخت متضجـرًا، وهممـت أن أقول لـه إنني لن ألبـس هذه الأشـياء، حتى لو عدت إلى بلدي صفر اليدين، أو متُّ جوعًا، لكنه فاجأني كالعادة:

- هذا أفضل لك، حتى لا يعرفك أحد ... أنت سـتكون واحدًا من مشـاهير هذا البلد في المسـتقبل، وصورك سـتملأ الجرائد، و«حسـونة»

سـيطاردك عند «عمـر مكرم»، والأفضل أن تبقى هذه الأيام مسـتورًا، إلى أن تكمل دراستك، وتمضي إلى حال سبيلك.

ثم حك ذقنه بأطراف أصابعه، وقال:

- أو تبقى هنا واحدًا منا إذا أردت.

وسألني بغتة:

- أغمض عينيك قليلًا.

نظرت إليه باندهاش، فأفهمني:

- أريد أن أراك خاشعًا لأطمئن إلى أن مديحك سيهز القلوب.

شـعرت بأنه اسـتدرجني بـذكاء إلى مـا يريد، واسـتعدت أول كلام افتتـح به الطريـق حتى يجعلني أكمل طريقه، حسـبما يعتقـد، وكنت قد ذهبت معه إلى حيث لا ينفع الرجوع.

الفصل الثالث

(1)

جيوش من أرق هاجمتني في تلك الليلة الغريبة في حياتي، وخزتني كإبر أسنانها من جمر، وجعلتني أتقلب في حيرة وخوف مما ينتظرني حين يطلع النهار. أرق في أرق، وسهاد لا يريد أن يرحل، والنوم صار عزيز المنال.

كنت قد حفظت ثلاث قصائد، وأتقنت إغماض عينيَّ قليلًا، وإمالة رأسي إلى اليمين، ومد كفي بعد إضمام أصابعي إلى جانب فمي، ثم نقلها سريعًا لتضرب الدف، كي ينطلق النشيد. تدربت على أن أكون في منطقة وسطى بين الحضور والغياب، أو أجعل الناس يعتقدون أنني هكذا.

وآثرت أن أجرب اللباس، ما دام النوم لا يأتي. خلعت جلبابي، وارتديت ما أعطاه لي «عبد الشكور»، ونظرت إلى هيئتي في نصف المرآة المكسورة المائلة على استحياء، لتشكل نصف درفة دولابي المتوعك، الذي لم أجد فيه أرففًا ولا شماعات، فاستعملته صندوقًا واقفًا لملابسي القليلة.

راق لي منظري، وتخيلت أنني أزهري يتأهب لصعود منبر عال، فشددت منكبيَّ، وتنحنحت وخطبت في ناس أراهم ولا أراهم عن «السعادة»، لكن الذاكرة لم تسعفني بآيات قرآنية، ولا أحاديث منسوبة للرسول، في هذا الموضوع، إنما أقوال حكماء مروا على الزمن، أو مر

الزمـن عليهـم في مناكـب الأرض. قلت كل مـا أعرف وأنـا غارق فيما ينطقه لساني.

لكن الغنج الذي بدأ يسري في الليل الراحل، مخلوطًا بروائح البانجو والحشـيش، كان يقطـع حديثي. امرأة أخرى لم أسـمع صوت لذتها من قبـل، وأخرى تضحك في فحش، وتـراوغ فحيح رجل يلاحقها بألفاظ نابية، ويمد يده إلى مكامن شـهوتها مستجيبًا لما تطلبه هي بلسان يتلوى من فرط النشوة.

حاصرتني الأصوات من كل جانب، فجذبت على الفور حديثي من المعنـى الـذي تمتلئ به الروح إلى اللذة التي يشـتعل بها الجسـد. وجاءني طيف «سـميرة» وهو يتمايل أمامي في شـارع «المبتديـان»، وارتميت على سريـري فطقطق ثم تهاوى، فلم ألق لـه بالًا، وطاوعت السـعير الذي سرى في شرايينـي، فمـددت يـدي لأطفئـه وأنـا أغمغـم وأجـأر حتى سقطت مكاني بلا حراك.

حين حطت الشـمس على رأسي قمت مفزوعًا، وبدأت يومي الأول في مهمتي الجديدة من دون أن أغتسل.

خطفـت الدف، وجريت أهـز الدَرَج حتى وجدت «عبد الشـكور» جالسًا يحملق في جدار الزقاق، ويقول:

- تأخرت يا مولانا، والرزق يحب التبكير.

وقفت أمامه كاسف البال، فأشار إليَّ:

- تعال غيِّر ريقك.

ومد نحوي شطيرتي فول وطعمية، وقال في جدية ظاهرة:

- ابلع واجرِ.

وجريت وحصى الزقاق يتطاير أمامي حتى بلغت شارع «بور سعيد» وانعطفت يمينًا حتى وصلت إلى محطة «أبو الريش» فوجدت الأتوبيس الذاهب إلى حي «مدينة نصر» يتأهب للانطلاق.

صعـدت ووقفت عند البـاب الأمامي، ونظرت في عيـون الركاب، التي تعلقت بالدف وراحت تمسح هيئتي.

وقال رجل يجلس في المنتصف، وهو يشير إلى مقعد خال بجواره:

- تعال يا مولانا.

لكني تشبثت بمكاني، ورفعت الدف قليلًا حتى بلغ صدري، لكن أصابعـي تيبسـت، وانحبس صـوتي، ووجدت نفسي أتقهقـر، وأتأهب للهبـوط، إلا أن أصابع صغيرة نقرت كتفي، ومرق من جانبي ولد راح صوته يملأ أذني:

«صـلِّ على رسـول الله .. آيـة الكرسي وتفسـيرها يـا مؤمن، حصن منيـع ضد الفقـر والمرض والحسـد والقهر. أنيـس في وحدتك، صديق في غربتـك، تفريج في كربتـك، وفرح في حزنك، وجلاء لهمك وغمك، وشفيع في تربتك. آية لا تقدر بكل مال الأرض، وهبتها خمسون قرشًا يا مؤمن، والرزق على الله».

كررهـا ثلاث مرات قبل أن ينطلق كسـهم حاد بـين المقاعد، ويرمي على حجور الجالسـين كتيبات بحجم كف يده. بعـض الركاب التقطها وراح يقرأ في صمت. بعضهم تركه على حجره سـاكنًا، أو أمسكه بيده ليعيده إلى الولد، الذي كان قد وصل إلى آخر المقاعد، ثم ارتد سريعًا إلى

أولها، ومد يده إلى الركاب. قلة منهم أعطته ما حدده من وهبة، وأكثرهم أعادوا إليه كتيباته ذات الأغلفة الخضراء.

جمع النقود إلى جيبه، والكتيبات إلى الحقيبة الصغيرة المعلقة في ذراعه، وهبط سريعًا، يجري نحو حافلة أخرى.

شعرت بأن هذا الولد قد جاءني في الوقت المناسب، فتدحرجت صخرة الخجل من نفسي، وقلت لها: «كلمات يحفظها الولد ولا يفهم معانيها، جادت عليه برزق ليس بالقليل، فما بالي أنا الذي أعي ما أحفظ، وأنوي بذل جهد أكبر في تحصيل رزقي، وهيئتي أقرب إلى الدين من ولد يلتصق قميصه وبنطاله بجسده النحيل».

رفعت الدف حتى صار بمحاذاة وجهي، وضربته خفيفًا فصهلل، وانطلق فمي بالنشيد:

«يا صاحب القبر المنير بيثرب	يا منتهى أملي وغاية مطلبي
يا من به في النائبات توسلي	وإليه من كل الحوادث مهربي
يا من نرجيه لكشف عظيمة	ولحل عقد ملتو متصعب
يا غوث من في الخافقين وغيثهم	وربيعهم في كل عام مجدب
يا رحمة الدنيا وعصمة أهلها	وأمان كل مشرق ومغرب»

كان صوتًا حلوًا صافيًا كالصباح المشمس الذي غمرني بالدفء، وكانت نصف عيني المفتوحة ترقب آثار ما أشدو به على وجوه الركاب.

بعضهم فتح عينيه دهشة، وآخرون هزوا رءوسهم طربًا، وقلة كانت جامدة في أماكنها، غارقة في همومها لم تشعر حتى بوجودي بينهم. رجل في المنتصف لم ينتظر حتى أنتهي من نشيدي وأطلب وهبتي أو صدقتي، فمد يده في جيبه وأخرج ربع جنيه مطويًا، ودسه في يدي. سيدة بدينة تجلس بعده بصفين من المقاعد فعلت مثله. وفي عودتي وجدت في جيبي جنيهين وربعًا، بينما كان الأتوبيس قد تحرك، وقطع شارع «السد» حتى وصل إلى محطة ميدان «السيدة زينب» وتوقف فتزاحم الركاب على البابين الخلفي والأمامي وتحركوا في سرعة حتى انحشروا في المنتصف، ومنعوا رحلة ذهابي وإيابي، فلذت بالصمت حتى جاءت المحطة التالية، فهبطت لأبحث عن حافلة أخرى.

(2)

حين عدت مجهدًا بعد الظهر وجدت «عبد الشكور» في انتظاري واللهفة تسكنه. ما إن رآني حتى بادرني قائلًا:

- جئت قبل ميعادك.

تصرَّف معي كأنه رب عملي، بما أعطاني إياه، ونطق كلامه بطريقة أشعرتني بأنني أجير لديه. كتمت غيظي وقلت:

- لدي محاضرات مهمة اليوم.

هز رأسه وقال متبرمًا:

- لكنه أول يوم لك.

قلت في نفسي: «لابد أن أكون حاسمًا معه هذه المرة، ليعتاد ما سأفعله» فقلت له:

- لا تنس أنني موجود هنا من أجل استكمال دراستي العليا.

لم يرد، وتطلع إلى جيبي، فتقدمت نحوه، وقلت وأنا أخرج له كل ما معي:

- هذا هدفي الأصيل، ولن أحيد عنه أبدًا.

أخذ يعد النقود في صمت، مبللًا إياها بلعابه الغزير، فلما انتهى قال دون أن ينظر إليَّ:

- لا بأس.

ثم مد يده إلي بثلاثة جنيهات، وقال:

- جمعت إيجار غرفتك لشهر كامل في يوم واحد.

لم أجاره في حديثه فواصل:

- غدًا قد تحصِّل ما تأكل به، والحساب يجمعنا.

كنت أحسب أنه قد تصدق عليَّ بطعام الأمس واليوم، ولم يرد منًّا ولا أذًى، ولا لشماله أن تعرف ما أنفقت يمينه، لكنه أظهر حقيقة بخله أمامي من دون مواربة، ولم يكن في حاجة إلى أي تجميل لها، حتى حين قلت له على سبيل المجاملة: أنت رجل كريم، قهقه حتى أزت الدكة من تحته، وقال في غلظة:

- لم تأت إلى هنا ليتصدق الناس عليك.

تركته فرحًا بصيده الجديد، وصعدت إلى غرفتي. غيرت ملابسي وهبطت سريعًا إلى الجامعة. ركبت في أول مقعد بالحافلة، وحين صعد الولد الذي يوزع آية الكرسي في محطة «أبو الريش»، أخذت كتيبًا منه ودسست في يده خمسين قرشًا، ولم أدعه ينتظر حتى يرميها على حجور كل الركاب ويعود ليجمع ما جاد به بعضهم.

في قاعة المحاضرات شردت فيما فعلته اليوم، ورأيت كل الأيدي التي امتدت إليَّ من فوق المقاعد تتجمع، لصنع جدار لحم يحجب السبورة ووجه الأستاذ عني، ثم تحيطني من كل جانب فلا أرى زملائي.

في محاضرة اليوم التالي كان عليَّ أن أنتبه بكل كياني، لأنها كانت حول «فلسفة التحايل»، وتطرق الأستاذ إلى تحايل المصريين على كسب أرزاقهم.

انتبهت تمامًا رغم أن وجه المحاضر سرعان ما اختفى، وحل محله وجه «عبد الشكور»، وتحول زملائي إلى أولاده «حسونة» و«عزازي» و«أبو عوف» و«سميرة» وابن أخيه «عاطف» الذين يوزعهم على الشوارع القاسية، ويجلس في مدخل بيته المجدب ليحصد ما جمعوه، وهو يضحك ويبصق ويحملق صامتًا في جدار الزقاق.

لكن الوجوه التي لم تحضر إلى هذه القاعة في يوم من الأيام، لم تمنع صوت المحاضر من أن يصلني جليًا:

«تحايلوا تعيشوا .. إنه المبدأ الذي يعشش في رءوس كثيرين من أهلنا، لا سيما البسطاء منهم، الذين لا نعرف على وجه اليقين كيف يستمرون على قيد الحياة بهذه الدخول الشحيحة؟ من أين يأتون بما يسد جوعهم ويستر عريهم، ويدفعونه لأبنائهم في سبيل التعليم والصحة؟ إنها المعادلة العصية على الفهم المنطقي في هذا البلد العريق، الذي اعتاد أهله أن يرتبوا معاشهم رغم قسوة الظروف، وتعاقب الطغاة والبغاة والسُّرَّاق. ظاهرة قديمة متجددة تشهد بعبقرية المتنبي حين وصف الحال والمآل في بيت عميق من الشعر، نردده في حسرة:

«نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... وقد بشمن وما تفنى العناقيد»

ولما انتهى الأستاذ من شرحه مسح وجوهنا جميعًا بعينيه وقال:

– نزلت الفلسفة من السماء إلى الأرض، وما قلته في هذه المحاضرة أولى بتفكيركم كما شغل تفكيري طويلًا، وفي هذا سيأتي سؤال في

امتحان آخر العام، لا أفرض عليكم إجابته مما قلته، فما نطقت به كان مجرد مفاتيح للقضية، أما بقيتها فموجودة بينكم في البيوت والأزقة والشوارع، فالتقطوا منها أي تجارب ميدانية تعينكم على الجواب.

تهللت أساريري، وقررت وقتها أن أكتب المختصر المفيد عن تجربة «عبد الشكور» وأولاده، ووجدت نفسي أضع صورتي إلى جانب صورهم، وسمعت صوتًا من أعماقي يقول:

– هذا الرجل الجالس بلا حراك هو أبي الذي لم ينجبني، وما وضعني فيه من عسر، ها هو ينقلب يسرًا، ليس لأنه وفر لي ما يبقيني هنا، بل سيساعدني ليس على إجابة سؤال من أسئلة في مادة واحدة ضمن مواد عديدة أدرسها فقط، بل يمكن أن آخذه موضوعًا لأطروحتي التي أعول عليها في أن تدفعني خطوات إلى الأمام، بدلًا من موضوع في «فلسفة العلم» كما كنت أعتزم من قبل.

وفي عودتي احتضنت «عزازي» بشدة حتى كادت أضلعه تختلف بين ذراعيَّ، وتركته مندهشًا، ونقود زبائنه ملقاة تحت قدميه، والسيارات تجري في اتجاه غصت فيه أنا نحو كوبري «زينهم» الذي تطل عليه غرفتي وقد تقلعها عاصفة ذات يوم فتصطدم به ثم تسقط فوق المقاهي والحوانيت ورءوس العابرين منكسي الرءوس كأن عليها الطير.

(3)

قبل أن أنعطف يسارًا عند كوبري «زينهم» لأغطس في النفق المتسخ فأعبر إلى البيوت الآيلة للفناء في الضفة الأخرى ولدت في نفسي رغبة أن أذهب إلى الكورنيش سعيًا وراء عيني «سميرة» النجلاوين.

قطعت الطريق على عجل، قدمان تنهبان الرصيف وعينان تحاذران من فروع الشجر المدلاة الملتوية كي لا أصطدم بها. وصلت إلى مدخل ميدان «عبد المنعم رياض» ولم أجدها. قفلت راجعًا حتى وصلت إلى «الملك الصالح» وكانت غائبة.

وقفت يائسًا أحملق في الماء الذي يندفع بهدوء نحو الشمال في الفرع الصغير للنيل، منعمًا بخضرة تمنحها إياه الحشائش والأشجار القصيرة المتناثرة على ضفتيه. ملأ أذني غزل فتى لفتاته، حين اقتربا مني، فالتفت إليهما لأجد آثار «سميرة» في أيديهما وردتين حمراوين.

«هي هنا، ولا بد أن أبحث عنها»، قلت لنفسي، ومشيت في الاتجاه المضاد لقدوم الفتى والفتاة، لأرى لأول مرة بيوت حي «مصر القديمة» وورشها وحوانيتها البسيطة المتتابعة، وأكتاف دور متهالكة تطل على استحياء من حارات جانبية متوارية عن عينيَّ خلف بيوت الصف المشرف على النيل.

وجدت «سميرة» بعد ربع ساعة من الهرولة، كانت الشمس فيها قد غابت، وليتني ما وجدتها، إذ كانت جالسة إلى جانب فتى مديد

القامة، مفتول العضلات، يتطاير شعره في النسيم، وينسدل على جبهته، كما يطير الدخان من فمه وأنفه، ويصنع سحابة رقيقة يحجب بها وجه «سميرة» الجميل عن العابرين.

وقفت على بعد خطوات منهما أغالب رجات قلبي، وتمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتني، أو غمرتني المياه وأخفتني عن الأنظار. خشيت أن تعتقد أنني أراقبها، وكاد يقتلني شعور طرأ على نفسي بأن هذا فتاها، وأن ما أرتبه من تفاصيل صغيرة معها لأدلل على تعلقها بي مجرد أوهام، تطير من دخان سجائر فتاها المشوق.

تراجعت خطوات إلى الوراء وقبل أن أستدير وأعطيها ظهري وأمضي التفتت هي ورأتني، ونادتني:

- أستاذ «رفعت».

تقدمت خطوات خجلى وأنا أكذب:

-كنت ذاهبًا عند قريب لي في «مصر القديمة».

لم تعتن بما قلت، وقدمت لي من يجلس إلى جانبها:

- «سُلطة» جارنا.

- «سُلطة»!

عندها وقف هو فبانت عضلات صدره وزنديه تحت فانلة مطاطة ملتصقة بجسده، وسأل بصوت خشن:

- ألم تسمع عني؟

هززت رأسي نافيًا:

- لم يحصل لي الشرف.

اكتسى وجهه بضيق شديد، ونابت هي عنه لتهدئ من غضبه:

- «سعد»، ابن المنطقة وشجيعها.

تقدم مني خطوتين حتى وقف في مواجهتي تمامًا، تاركًا ظله ينام على الرصيف، وأناخ رأسه نحوي وفي عينيه نار، لمعت في بقعة الضوء التي يصنعها عمود إنارة، وبقايا الدخان كانت لا تزال تملأ منخريه فنفخها نحوي بغلظة. ولم أدر لمَ يتصرف معي بهذه العدوانية؟ وشعرت هي بتوتري واستغرابي، فلطفت من الجو، قائلة:

- فرصة ليعرف كل منكما الثاني.

لكنها كانت معرفة الشؤم والندامة، فالبقعة الرثة التي أقطن فيها ازدادت قبحًا لمعرفة هذا الفتى المغرور، الذي تبين لي فيما بعد أن «سميرة» لا تبادله أي عاطفة، إنما هي مجبرة على مجاراته، حتى يمكنها أن تمضي هنا وهناك آمنة.

(4)

تآلفت في الأسبوع الثاني قليلًا مع شغلتي الغريبة، فأديتها بخفة كنحلة حفظت مكان الزهور التي تحط عليها، وتمص منها الرحيق. جمعت نقودًا أكثر في الأيام الأخيرة، وعدت يوم جمعة بُعيد العشاء، لأجلس على المقهى بلباس العمل، أحتسي الشاي الثقيل الساخن، وأنفث دخان «الشيشة».

ما إن دخلت حتى وجدت «سعد» جالسًا يلعب الورق مع أربعة في مثل سنه، ويحيط بهم أربعة مثلهم. لم يلمحني، وابتعدت عن مرمى بصره بقدر الإمكان، ورميت أذني لتلتقط ما يتحدثون فيه.

كان كلامًا تافهًا، لكنه دلل لي على أن «سعد» له سطوة عليهم جميعًا. حتى نادل المقهى حين ناداه، جرى إليه، وأنصت إلى طلبه، وما إن أعطاه ظهره وابتعد قليلًا حتى سمعت صوته الخفيض الغارق في الاشمئزاز:

- ربنا يخلصنا من شرك.

وحين وصل إلى النصبة، همس في أذن رجل أربعيني يقف خلفها مشغولًا بإعداد المشروبات الساخنة، ثم خرج إلى الشارع، ووقف برهة في وجه عربات الفاكهة، وعبر إليها، ليعود بعد قليل ومعه بضع برتقالات.

ولم تمض سوى دقائق حتى كان يحمل صينية عليها عصير برتقال، ويتوجه بها نحو «سعد»، لكن رجلًا طاعنًا في السن، نهض من على

مقعده فجأة اعترض طريقه دون أن يراه، فاهتزت الصينية في يده، فسقط كوب العصير وانسكب على الأرض.

ما جرى كان أمامي، ورآني «سعد»، وهو يتابع انزعاج النادل واصفرار وجهه. رمى الورق ونهض من مكانه وتقدم نحوي، وظن حامل الصينية أنه يقصده بسوء، فتراجع إلى الخلف مفزوعًا، وتعثرت قدماه في كرسي خال، لكنه تماسك، ليجد «سعد» جالسًا أمامي أنا.

عرفني رغم اختلاف هيئتي عن تلك التي رآني بها، فأيقنت أنه حفر ملامحي في ذاكرته، أو استعاد ما جرى بيننا غير مرة، وملأته ظنون عما يربطني بـ «سميرة».

وحين نطق أيقنت أنه يعرف عني الكثير. أخذ كوب الماء الموضوع أمامي وشفطه في جرعة واحدة، وقال:

– عشنا وشفنا، المشايخ يدخنون الشيشة.

ابتسمت وقلت له في صوت خفيض:

– لست شيخًا.

هز رأسه، وملأ وجهه بحنق شديد وقال:

– أعرف أنك تلميذ.

ومد يده وجذب الجبة والقفطان في غيظ، وواصل وهو يغمز بعينه اليسرى:

– لكنك لابس شيخ .. لزوم الشغل يعني.

وقهقه والتفت إلى أصحابه الجالسين هناك يتابعوننا، وقال بصوت عال:

– تلميذ وشيخ ومطرب عاطفي.

اتكأ على الكلمة الأخيرة، وهو يقرص ساعدي بأظافره الحادة، وبدا أنهم يعرفون ما يرمي إليه، فغرقوا في قهقهات لاذعة رجت المكان، وتطاير لها الدخان الخارج من الأنوف والحلوق، وتراقص الشر في المساحات الضيقة المحصورة بين الكراسي.

ولم أجد ما أوقف به انزلاق الأمور إلى ما لا تحمد عقباه غير أن أقول:

– أنت من في البال يا أبا الرجال.

سرت الراحة في صفحة وجهه، وتساقطت حبات الشر على كفيه الخشنتين، فرماها على رءوس الجالسين، وعانقني بعينين ازدادتا اتساعًا، والتفت إلى النادل:

– ساقع على حسابي للأستاذ.

وعاد إليَّ بوجهه وسألني:

– فسر كلامك.

بلعت ريقي، واغتصبت من جوفي ما أعرف كذبه، ولا أتمناه ما حييت، وقلت له:

– الجار يعرف أحيانًا.

وكان يريد أن يصدقني، فأسعده كلامي، وتراخى في مقعده، وبدا شخصًا آخر غير الذي عرفت، فأحزنني منظره، إذ أدركت أن «سعد» يهوى «سميرة»، وأن طريقي القصيرة إليها نبتت فيه أشواك برية عفية، ستجرح باطن قدميَّ العاريتين بقسوة، وليس أمامي إلا أن أخفف النزيف على قدر استطاعتي حتى لا يهرب مني كل دمي، فأخر صريعًا.

وقمت قانطًا أتخبط في لباسي، العمامة في يسراي، والدف في يمناي، والزقاق أمامي يحفل بظلامه الشامل، بعد انقطاع الكهرباء فجأة.

في الطريق تعثرت في جسم ملقى بجوار الحائط، وسمعت أنة حادة، فملت فزعًا لأرى، فإذا به ولد غائب عن الوعي، وأمام فمه رائحة كريهة. وجاءني صوت من الخلف:

– هذه آخرة شم الكُلَّة... ضيعت نفسك يا ابن الكلب.

كان رجلًا ربعة، لم يلبث أن جلس القرفصاء، وشد الولد المُغَيب من أذنه، ثم ضربه على قفاه بقسوة، فنهض معه وهو يسعل، وغابا معًا في عمق الظلام، وبقيت أنا مكاني أرقب الجزء الموارب من باب بيت «عبد الشكور» الذي ينضح منه نور شحيح، وتنفلت شهقات حادة، وصفير صدر مهيض، وأزيز كنبة متداعية.

(5)

مرقت من أمام الباب الموارب فلم يلمحني، ووصلت إلى الساحة الضيقة التي تتوسطها حنفية المياه العمومية، شخصت ببصري لأتبين الأجساد التي تصدر أصواتًا تصل إلى أذنيَّ من عمق الظلام.

كانت شهقات تختلط فيها الرغبة بالخوف، والإقدام بالإحجام، والاستسلام بالمقاومة. أصوات نابعة من المناطق الوسطى في الأجساد. تقدمت على أطراف أصابعي، وحملقت في اتجاه ما أسمع، فبانت لي أربعة أجسام تتهارش في خشونة، لفتيين وفتاتين، كل واحد مع واحدة.

تنحنحت فافترقوا، مشى الولدان نحو الطرف الآخر واختفيا، وجرت البنتان نحو صفيحتين واقفتين في صمت تحت فوهة الحنفية المغلقة، تعلنان عن نفسيهما في زخات رفيعة متقطعة تنطلق من ثقب دقيق جدًا، وتصطدم بهما.

خلص لهما جسدي في الظلام، فقالت إحداهن:

– يسعد مساءك.

تباطأت في الرد، فانهمكتا في ملء الصفيحتين، وحين رددت تحية المساء ضاع ما نطقت به في هدير الماء المتدفق من فوهة الصنبور الضخم، لكنني سمعت الطويلة منهما تقول للأقل طولًا:

– هذا شيخ.

وردت عليها في فزع:

– شيخ!

وسكتنا برهة، وعادت الطويلة تقول:

– الشيخ الجديد لجامع «سيدي محمد المواردي».

وبرق الاسم في رأسي، فقد حدثني عنه طويلًا «عبد الشكور» في أول عهدي بهذا المكان البائس. قال لي في تبتل:

– كنت أنشد بعد صلاة الجمعة في حضرة نقيمها أمام ضريح «سيدي المواردي».

وكنت أرى المسجد بنوافذه السبعة متفاوتة الأحجام والأشكال التي تطل على شارع «بور سعيد» وأنا جالس على المقهى ويحلو لي كل مرة أن أقف أمام اللافتة التي تعلن عنه ومكتوب عليها: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، لكنني لم أكن قد دخلته إلى الآن.

وتذكرت أن كراسة المدائح التي أعطاني إياها لأحفظ قصائدها بها صفحة في نهايتها مدون فيها بتصرف ما ورد في «الخطط التوفيقية» لـ «علي مبارك» عن الطريق الذي كان يؤدي إلى ضريح «المواردي»:

«هذه القنطرة تصل البر الشرقي للخليج حيث كان خط الحمراء قديمًا بالبر الغربي الذي يقع به بستان الخشاب، وهناك توجد منشأة المهراني التي تؤدى القنطرة إليها. ومكان هذه القنطرة الآن على شارع الخليج المصري في النقطة التي يتلاقى فيها مع شارع علي باشا إبراهيم

(شارع مدرسة الطب سابقًا). وقد أنشأ هذه القنطرة الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة 637 هـ/ 1240 م، وكان لها عقدان وقت إنشائها، وقد عُرفت باسم (قنطرة السد) بسبب وجود السد الترابي الذي يعمل سنويًا في هذا المكان حتى تنتهى زيادة النيل إلى 16 ذراعًا فيفتح حينئذ. وحدث تعديل معماري على القنطرة في العصر العثماني فأصبحت ذات عقد واحد، كما صوره لنا الرحالة نوردون في رسمه للاحتفال بكسر سد الخليج. كذلك ذكر في محاضر لجنة حفظ الآثار العربية أن هذه القنطرة تتكون من عقد واحد مبنية من الحجر، ووجد على جسم القنطرة أسدان منحوتان برداءة تشبه الأسود التي كانت على سور مجرى العيون، وتم نقلها لمتحف الفن الإسلامي. وقد وقع نيبور هذه القنطرة في خريطته باسم قنطرة الجنينة ورمز لها بالحرف b كما وقعت في خريطة الحملة الفرنسية باسم قنطرة الجبير برقم 278 في المربع Y14، كما عرفت في القرن التاسع عشر باسم قنطرة المواردي نسبة لضريح سيدى محمد المواردي المجاور لها».

هكذا قرأت ما ورد في الكراسة بعد أن خلوت إلى نفسي في غرفتي، وضحكت حين وجدت خط «عبد الشكور» تحت المنقول من «الخطط التوفيقية» ينبئنا بأنه طالع هذا الكتاب في مكتبة «دار الهلال» التي أتيح له أن يدخلها ذات يوم برفقة صديقه المطبعجي «سيد أبو اليزيد»، وقلت في نفسي:

– دخل «عبد الشكور» إلى قلب الدار ولم أر أنا سوى مدخلها المهيب، بابها العالي وسلمها الطويل ورجال أمنها الذين لا يملكون ردًا مفيدًا على أسئلتي.

أغلقت الكراسة، وقفزت إلى رأسي فجأة يد «عبد الشكور» وهي ممدودة نحو جيبي تطلب كل ما حصلته اليوم من رزق، وكيف أنني تعلمت من اليوم فقط أن أخفي عنه بعض ما كسبت، بعدما تيقنت من طمعه الشديد.

كان قد صادني منذ اليوم الأول حين قال:

- أعتبرك واحدًا من أولادي، وأنت أيضًا تسعى إلى ذلك.

ورفعت عينيَّ إليه وملؤهما دهشة، ففسر ما قال:

- عينك من بنتي، فإن أردت سأزوجها لك، وأولادك يصيرون أحفادي.

وساورتني ظنون أن تكون قد صارحته بما أتمناه، لكنه بدد ظنوني حين قال:

- البنت لم تفاتحني في شيء، لكن لا تنس أنني خبير غرام.

ومد يده إلى جبيني هذه المرة، وفردها عليه حتى غطاه، وهو يثبت وجهي نحوه، ثم ركَّز في عينيَّ، فجفلت منه، وزاغ بصري عنه، مدفوعًا بدفقة عارمة من الخجل، اهتز لها كياني.

عندها قهقه، وقال وهو يعيد يده إلى حيث أتت:

- أنا موافق، ولن أجد من هو أفضل منك.

ثم نظر إلى الدف العالق في يدي، وواصل كلامه:

- ما يكسبه أولادي سيعود إليهم، سأهدم هذا البيت وأبني مكانه عمارة، ستة أدوار، كل دور على شقتين، والشقة 75 مترًا، ولو شديت حيلك معي ستكون لك شقة .. لا.. شقتان، واحدة لك والثانية لـ

«سميرة»، يعني دور كامل تعيش فيه بتبات ونبات، وتخلف صبيان وبنات.

ولهذا كنت أعطيه ما أكسبه عن طيب خاطر، وأقول في نفسي: «إن ربحت «سميرة» فقد ربحت، وإن خسرتها فلن يضنيني ضياع أي مال حتى لو كان مال قارون».

لكن هذا كان قبل أن أرى «سعد» يجلس إلى جانبها على الكورنيش، وأعرف أنه حاز لقب «سُلطة» لقلبه الميت، وسوابقه المتعددة، ونائب البرلمان الذي يستعين به أيام الانتخابات ليمنع مناصري منافسه من الوصول إلى لجان الاقتراع.

أكثر من حكى لي عنه كان «عاطف»، ولاحظت أن يده اليمنى ترتعش قليلًا، وفي عينيه بقايا خوف لا تريد أن ترحل. وأزاح القميص عن كتفه، لأرى آثار شر «سعد» محفورة كقوس مكسور، يتمدد فوق الكتف ثم يهبط نحو الظهر.

يضع يده على قوسه القديم، ويدوس على أسنانه، ويقول:

- كلما لمسته عاد إليَّ الألم الذي شعرت به وقت أن غرس مطواته في لحمي وعظمي.

وأنبأني «عاطف» أنه كان أولى ضحاياه، وبعدها سالت في الأزقة دماء، وشوهت وجوه وجباه، وارتجفت قلوب، وانطلقت صرخات وأنات، وامتلأت عيون بالدموع، واضطربت أحوال، وجرى الناس يمينًا ويسارًا، وبعضهم ابتلعوا ألسنتهم، وآخرون توعدوا بالثأر، لكن لم ينل الصائتون والصامتون من «سعد» فاستفحل شره، وانجذب إليه

فتية من عدة أحياء سكنية مجاورة، بعضهم يكبره سنًّا، لكنه يخضع له، وصاروا عصابة يخشاها الجميع، ووصل صيتها إلى الأحياء المجاورة.

وحين فاتحت «عبد الشكور» في شأن «سعد» وعصابته، زام وشحط صدره، وقال:

- لا يقدر على القدرة إلا صاحبها.

وتاه طويلًا في نفسه، وكنت أتابعه صامتًا، أهش الخوف عن نفسي على قدر استطاعتي، وأحلق في العتمة الرائقة بالردهة الضيقة لعلي أرى «سميرة» التي يأتيني صوتها وهي تساعد أمها في طهي الطعام، وحين عاد من شروده، نظر إليَّ وسألني:

- ألك عزوة في بلدك؟

هززت رأسي بالإيجاب:

- نعم.

ابتسم في خبث وقال:

- يجب أن تذيع هذا الخبر هنا، لتحمي نفسك... فمن له ظهر لا يُضرب على بطنه.

- بيني وبين أهلي أكثر من خمسمائة كيلو متر.

- حتى لو كانوا في آخر الأرض، حسهم سيكون معك.

وتنحنح وقال مستنكرًا:

- ألم تعلمك الجامعة شيئًا؟

ضايقني سؤاله، وامتنعت عن الإجابة، فوجدته يقول:

- جامعة الحياة علمتنا أن «الصيت ولا الغنى».

- لا أحب الكذب.

- ليس كذبًا، ألم تقل إن لك أهلًا.

- نعم، لكنهم ناس غلابة.

- غلابة أم أصحاب أملاك .. الكل عندكم لا يترك ثأره.

ضحكت وقلت:

- يبدو أنك تتوقع أن يقتلني «سعد» وعصابته.

- بل أريدك أن تردعهم، فإن عرفوا أن وراءك من سيثأر لك سيتجنبونك، فهم في دخائلهم جبناء، ولا يغرنك الصوت العالي والأسلحة البيضاء.

ونظرت إليه في مكر، ففهم ما أريد أن أقوله، فطأطأ رأسه، وقال:

- سَكَتُّ خوفًا على أولادي، ونحن لا عزوة لنا، لا في «تل العقارب» ولا في كل «القاهرة» .. أنا رجل مقطوع من شجرة.

وسرت في نفسي مخاوف من هذا الرجل الماكر، الذي يستولي على رزقي بدعوى أنني صهره المنتظر، والآن يريد أن يستعمل أهلي المساكين في مواجهة من يقهره قبل مجيئي إلى هنا. وشعرت أنني أبتعد عن الطريق الذي أتيت لأسلكه في هذه المدينة المزدحمة، وضاق صدري بما أنا مقدم عليه.

وفي هذه الليلة لم يأتني غنج المتلذذات بالمضاجعة، بل شجار أم عجوز مع ابنها الذي سرق فلوس كفنها واشترى بها الحشيش، وصراخ زوجة من ضرب زوج يجلس طيلة النهار والليل على المقهى بينما تدور

هي على شقق «جاردن سيتي» لتغسل بلاطها، وتنفض سجاجيدها وستائرها، وتلتقط ذرات الغبار العالقة فوق أثاثها، وبكاء ولد عجز أبوه عن أن يوفر له مصاريف كتب الدراسة وأدواتها.

وتقلبت في سهد، وشعرت أن الفراش يغوص بي ويرميني إلى واد سحيق، وبانت جبتي وقفطاني وعمامتي المعلقة على مسامير مغروسة بالحائط، كأنها ثلاثة وحوش كاسرة، متفاوتة الأحجام، تراقبني وتنتظر حتى أنام، ثم تهجم عليَّ وتفترسني.

وتزاحمت الفلسفات التي درستها في رأسي، وبدت عاجزة عن تفسير ما انتهى إليه حالي، وحاولت أن أُصفِّي ذهني حتى أتبين موضع قدميَّ، لكن الكدر لم يذهب عني، وشعرت أن ذاكرتي تتشقق كالأرض الشراقي، ويتساقط كل شق في ناحية، ويتفتت إلى ذرات من غبار، تدور في دوامات عاصفة، تأخذها إلى أقصى مكان، وليس بوسع الناس أجمعين أن يعيدوها إلى هيئتها التي كانت عليها.

وتخيلتني أقف في وجه العاصفة والتراب يكسوني، ويدخل من فتحات أنفي وأذنيَّ وفمي، وكل مسام جلدي، ثم يملأ مقلتيَّ، ويشرب دمعًا، فيصير طينًا، يسد أمامي الرؤية، فلا أرى شيئًا حتى نفسي.

(6)

لم أكن بحاجة مرة أخرى للذهاب إلى الكورنيش بقلب مرتجف، وعقل غارق في الظنون، كي أتتبع خطى «سميرة» فقد جاءت هي إليَّ عن طيب خاطر، وغشينا ظلام لكنه يخلو من السكينة.

كنت عائدًا أجر ساقيَّ من فرط التعب، وما إن فارقت هامتي حواف سور السلم المتآكل حتى وجدت شيئًا يتحرك وراء حبل الغسيل، يغطس ويطفو، ويحرك قطع الملابس في وجه ريح خفيفة.

تقدمت في هدوء وألقيت التحية:

– مساء الخير.

غرد صوتها الرخيم:

– مساء النور.

ورفعت هامتها، فوجدتها هي، ودانت لي اللحظة التي انتظرتها طويلًا. كان قلبي يرتجف فهزني ورأيت البيوت المتهالكة كلها تتراقص حولي، وثقل لساني، وفرحت بالظلام الذي يواري خجلي وانكساري.

لكنها قصَّرت المسافة أمامي، وقالت من دون مقدمات:

– ليس بيني وبين «سعد سُلطة» شيء.

لم أرد، وتقلب حالي بين فرح وحزن، فهاهي تنبئني بطريقة غير مباشرة أن داخلها شعورًا جميلًا نحوي، لكنها تضعني أمام هذا الفاجر وعصابته.

لم تدع هي صمتي يطول، وقالت:

- عمك «عبد الشكور» يعزك قوي.

عمي، ويعزني! يا ويلتي، تقتحمني على مهل وفي رسوخ، ولم يعد أمامي سوى أن أبادلها الكلام:

- وأنا أعزه أكثر .. والله أعلم.

أزاحت ابتسامتها قطعة الظلام الراكدة أمام فمها، والتفتت إلى غرفتي وقالت:

- عيشة العُزَّاب صعبة.

بادلتها الابتسام، والالتفات إلى باب غرفتي الخفيف المثقوب من وسطه وجنبيه وقلت لها:

- تعودت عليها.

لكنها فاجأتني، واقتحمتني أكثر:

- عادة ما أغسل الملابس وأنشرها قبل الظهر، اليوم تعمدت التأخر لألتقيك هنا.

عاد قلبي إلى الارتجاف، وسرت رعدة في بدني حين لمست أطراف أنامل «سميرة» يدي بلا قصد منها. كانت دافئة وناعمة ومثيرة، رغم أنها لم تكن سوى لمسة خاطفة.

قلت لها من دون حساب:

- أنت فاتنة.

اتسعت حدقتاها وردت:

- لن أجاري فيلسوفًا في الكلام.

فتشجعت وقبضت على راحتها الطرية، وقلت لها:

- لم أر مثلك من قبل.

ابتسمت وتساءلت:

- ولا في بلدكم أو في الجامعة؟

هززت رأسي نافيًا:

- لم أر قبلك أحدًا.

اتسعت ابتسامتها وتساءلت:

- ولا بعدي؟

رددت عليها:

- لن أرى بعدك.

- ألهذه الدرجة؟

- أكثر مما تتصورين.

أشرق وجهها بفرح غامر، وسألتني:

- متى حدث كل هذا؟

- من أول نظرة.

وسارت نحو السلم، وعند أول درج التفتت لتجدني واقفًا في مكاني أتأمل جسدها اللدن الذي يتلوى في بقعة النور الوحيدة التي تصنعها لمبة مغروسة في الحائط بين الطابق الثاني والسطوح، ووددت في هذه اللحظة لو جريت نحوها واحتضنتها بقوة، كي تشعر بالنار التي تستعر داخلي.

لكنها لم تلبث أن اختفت في انحناءات السلم، وتركت ظلها مرسومًا على النور الهادئ، مشيت أنا إليه، ووقفت عند طرفه، ووددت لو ملت عليه بكل جسدي وأخذته بين ذراعيَّ، إلا أنني جمدت مكاني، والدهشة مما جرى تغلبني، ووجدت نفسي أردد في سري مع «ابن عروس»:

« يا بنت جملك هبشني .. والهبشة جت في العباية

رمان صدرك دوشني .. خلى فطوري عشايا»

وتمنيت لو كنت قد قلت لها هذا صراحة في وجهها، ووقفت أمامها أشرح كل شطر، من هذا «المربع» البديع، وأطيل في الشرح حتى مطلع الفجر، لكن فزعني صوت شق أذنيَّ بقسوة، حين قال:

– عشنا وشفنا.

ثم أطلق قهقهة رجت المكان، ما إن حددت مكان إطلاقها حتى انتهت، وتركت خلفها خوفًا خطف السعادة التي غمرتني بما قالته «سميرة» قبل قليل، جعلني أتلفت حولي كالمجنون، شاخصًا ببصري في كل ناحية، لكن لم أر أحدًا.

في اليوم التالي عرفت كل شيء حين صعدت الأتوبيس بالدف والقصيد، فما إن نقرت عليه فصهلل، حتى وجدت شيئًا حادًا يمزع

جنبي، ويفتح نافذة لدمي كي يهطل غزيرًا فوق أقدام الركاب، لتتداخ صرخات النساء، وتملأ الدهشة والخوف عيون الرجال، وهم يتابعون ذلك الذي طعنني وقفز، ثم ذاب في زحام ميدان «السيدة زينب».

الفصل الرابع

(1)

زارني «سعد سُلطة» في مستشفى «أحمد ماهر» ومعه خمس برتقالات؛ أربع منها مشقوقات من جانبها، والخامسة مقسومة نصفين، وتنز عصارتها الحلوة في الكيس البلاستيكي، وتقطر من ثقب به على البلاط، فيفتح النمل عيونه، ويدب نحوها في حذر.

وضعها إلى جانبي على السرير المتهالك، فسقطت واحدة منها على الأرض، واتسع شقها، لكنه لم يلق لها بالًا، بل ثَبَّت عينيه في عينيَّ وقال:

- تنجرح البرتقالة في جانبها، ويمكننا شقها، وقد تقع على الأرض وتتعفن ... هذا ما يمكن أن يحدث لأي بني آدم منا، قد يصاب بجرح بسيط لا يصفي كل دمه، ويلحقه الأطباء فيبقى حيًّا، ولو كان الجرح عميقًا يمكن أن يموت، وتتعفن جثته، أو تأكلها كلاب السكك.

وفهمت كل ما يرمي إليه، ولم أكن في حاجة إلى هذه الزيارة كي أعرف أنه هو وراء ما جرى لي، فمن طعنني وهرب هو من الذين لمحتهم يتحلقون حول «سعد» في المقهى، هكذا استعدت ملامحه الجانبية حين استدرت فجأة في الاتجاه الذي هاجمني منه الألم، وتيقنت من هذا حين تذكرت عقب إفاقتي ما قاله في أذني بسرعة خاطفة:

ـ لا تطمع في من هي لغيرك، وإلا سنرجعك لأهلك نساير لحم في صندوق.

وبعدها استعرت النار في جانبي الأيمن، وتوزع دمي على ملابس وأحذية الجالسين، وسمعت صرخات لم تلبث أن ماتت حين فارقني الوعي.

وها هو وعيي يكتمل حين باغتني «سعد» بسؤاله:

- سيأتي صول من قسم شرطة السيدة ليأخذ أقوالك، فبمَ ستخبره؟

صمتُّ قليلًا، ثم استدعيت كل ما درسته عن التحايل وأجبته:

- سأقول ما تريد أنت أن أقوله.

اكتسى وجهه بغضب، ونفخ متضجرًا، وقرب فمه من أذني وهمس:

- من ضربك شخص مجهول.

وسيسألك الصول:

- هل لك عداوة مع أحد، فأجبه: لا.

وابتعد بجسده إلى الوراء وواصل كلامه:

- ليكن في علمك أنك لو اتهمت أحدًا، فسينتقم منك، والشرطة لن تحميك.

ابتسمت وسألته ساخرًا:

- وهل هناك انتقام أشد مما أنا فيه؟

مصمص شفتيه واقترب من جديد وداس على ضروسه وهو يتوعدني:

- قد يقتلك حرقًا في غرفتك التي تنتظر عود كبريت واحدًا، أو يدس في جبتك قطعة حشيش ويتهمك بالاتجار في المخدرات فيضيع مستقبلك.

ونهض وتوجه نحو الباب، لكنه عاد مرة أخرى وقال:

- ما لا تعلمه يا سي التلميذ أننا نحن أيضًا رجال شرطة في هذا البلد، كثير من الضباط صاروا منا، ويفعلون ما نفعله.

وجاءني «عزازي» في اليوم التالي، وجلس بجوراي صامتًا، وفي عينيه زيغ، وعلى وجهه صفرة داكنة، والكآبة قد فرشت سوادها في قسماته. كان شاردًا في سقف العنبر، ثم يعود ليحط بصره على الأجساد المسجاة وهي تتقلب فوق أوجاعها، وينقلها فجأة إلى عينيَّ أنا، ويقول:

- الحمد لله، جاءت سليمة.

كررها ثلاث مرات، وفي كل مرة كنت أقول له:

- ربنا كبير وعالم بالحال.

لكنه استجمع شتات نفسه، وقال بلا مواربة:

- «سعد» جاء اليوم إلى البيت وطلب غرفتك لواحد من أصحابه.

وأصابتني الفجيعة، وارتسم أمامي وجه «سميرة» وهي واقفة على مدخل الزقاق تودعني بعينين دامعتين، وأنا أغوص راحلًا في زحام شارع «بورسعيد» تتأرجح حقيبتي القديمة في يدي، وبها ملابسي القليلة القديمة وكتبي، وتموت تحت خطواتي الوئيدة تفاصيل حميمة لم أكن أظن أن ترحل بهذه السرعة.

ورأيت نفسي أقف هناك تحت البناية الشاهقة، وأضع الحقيبة على الأرض، ثم التفت إليها، كي أملأ عينيَّ من وجهها المليح، وأنا أردد في سري قول «ابن عروس» الذي طالما سمعت شاعر الربابة يشدو به:

«يا قلب لاكويك بالنار .. وإن كنت عاشق لازيدك

يا قلب حملتني العار .. وتريد من لا يريدك».

وراح ذهني وراء الصورة التي تخيلتها، ولم أشعر بوجود «عزازي» إلى جواري، يحملق في ملامحي التي كانت تنقبض، إلى أن نبهني هو حين غمزني بإصبعه، وقال:

- أبي يماطله، لكن لا أعتقد أنه سيصمد أمامه.

رفعت يدي، وحركت أصابعي لتضرب الهواء القليل الذي يتسرب إلى العنبر، وقلت في ضجر:

- لا داعي للمماطلة، هذا مالكم وأنتم أحرار فيه.

صمت برهة، ورد في هدوء:

- أبي يحبك، ومستحيل أن يتخلى عنك.

فتساءلت صامتًا: «يحبني أم يحب ما أكسبه له؟»، ونظرت في عيني «عزازي» فوجدت الحيرة تسكنها، ثم انشغل كلانا في أنين رجل طاعن في السن يعدل ابنه من جلسته ساندًا ظهره إلى وسادة قاسية، حتى يتمكن من أن يعطيه كبسولات وجرعات دواء.

عدت إليه لأجده لا يزال شاخصًا ببصره نحو العجوز المتوجع، فمددت إصبعي إلى ذقنه وجذبته نحوي بلطف وقلت له:

- لا أريد أن أسبب لكم متاعب مع هذا البلطجي.

اغرورقت عيناه بدموع وقال:

- رأيته يطارد «سميرة» قبل شهرين، وحين اعترضت طريقه، سلمني لثلاثة من عصابته، فأمسكوا بي، ثم قيدوني إلى عمود نور.

غاظني كلامه فهاجمته:

- أنتم أربعة إخوة، ويفعل بكم هذا.

ضحك في مرارة:

- أربعة لا ظهر لنا، وهم أربعون ولهم ظهور.

- أربعون!

- وأكثر.

وصمت قليلًا وقال:

- تجاسرنا ذات مرة وقدمنا شكوى ضده في قسم شرطة «السيدة زينب» فضيعوا شكوانا، وأخطر الضابط «سعد» بما فيها فتهجم علينا، ولولا «سميرة» لآذانا.

ارتج قلبي لنطقه اسمها، وكتمت غيظي وقلت له باندهاش:

- «سميرة»!

- على جبروته هو ضعيف أمامها، وأبي يعرف هذا ويلاعبه بها.

قطعت مسافة أكبر نحو الحقيقة وسألته:

- وهل يمكن لأبيك أن يوافق على ارتباطها بهذا الشخص؟

هز رأسه بالإيجاب وقال:

– ليس أمامه خيار.

ثم طأطأ رأسه، وبانت في عينيه أشياء غير مريحة، وخفت أن يتركني لظنوني ويرحل فسألته من جديد:

– هل توافق هي على هذا؟

جال بصره في أرجاء العنبر، وعاد لي بإجابة أسعدتني:

– هي تكرهه، لكن تخشى أذاه.

– إذا كان يحبها فكيف يؤذيها؟

– الحب عنده هو أن يملكها .. كل من حوله عرفوا أنه يريدها، وصعب عليه أن يعجز أمامهم عن نيل ما يريد .. هددها قبل شهرين بأن يشوه وجهها بـ «مية نار».

وبلع «عزازي» ريقه، وشعرت أن جسمه يتضاءل أمامي، وشاربه الصغير يهتز، وقال:

– الحجة الوحيدة التي يقدمها أبي هي أنها لا تزال صغيرة، ولا يمكن للمأذون أن يعقد لأحد عليها قبل أن تبلغ الثامنة عشرة، و«سعد» يعد الأيام حتى تستوفي السن، ويتصرف وكأنها له حتمًا.

هززت رأسي وكأني أنفض عنه كلام «عزازي»، وقلت له:

– دعك من كل هذا .. أريدك أن تأخذ مفتاح غرفتي وتحضر لي ملابس أخرج بها من هنا .. قفطان أبيك وجبته تلطخا بالدم.

مد يده فأخذ يدي وداس عليها، ثم نهض وتوجه نحو الباب، ورأيت خطواته بطيئة، وهامته تعانق قدميه، فلما غاب عن عينيَّ شعرت أن جرحًا أكبر ينزف في نفسي، ولأول مرة في حياتي يتملكني إحساس

جارف بقلة الحيلة، بل بالقهر، فدفنت رأسي في الوسادة الخشنة، وبللتها بدموع دافئة.

(2)

لمحت من تحت إبط الممرضة وهي تضع المطهرات على جرحي وجه «سميرة»، كانت تدخل العنبر على استحياء، وهي تطوق بذراعها كيسًا ورقيًا تسنده على صدرها، وفي يدها الأخرى طاقة زهور بيضاء وحمراء.

راحت تمسح الأَسِرَّة المتراصة على مسافات متساوية ويجلس أمامها وعليها كل مريض وزائروه، ولم أقوَ على أن أناديها، فوجهي كان يقابل وجه الممرضة، وقلت لنفسي: «دعها تصل إليك بنفسها».

ووصلت بالفعل، فقد رأتني، وأشرق وجهها بابتسامة عذبة، وسارت نحوي متهللة، ووقفت عند رأسي. ووضعت الكيس على الأرض، ومدت طاقة الورد قبالتي، فوصل عبيرها إلى أنفي وأنف الممرضة، رفعت وجهها، ونظرت في عيني وضحكت وقالت:

- جاءك الشفاء.

ثم لملمت أدواتها ومطهراتها وانصرفت إلى السرير الذي يليني، وهي تزجر المتزاحمين من الزوار:

- هذا مستشفى يا حضرات وليس سوقًا.

لم تتوقف الجلبة، فصرخت:

- من لا يبلع لسانه فسأطرده من هنا.

وجدنا أنفسنا منعزلِينِ عمن حولنا، فملأت عيني من وجهها الرائق، وقلت لها:

- لم يكن هناك داع لتتعبي نفسك وتأتي إلى هنا.

ردت وعيناها في عينيَّ:

- لا يوجد عندنا من هو أغلى منك حتى نتعب له.

وساد بيننا صمت، قطعته هي:

- كما أن ما جرى لك هو بسببي أنا.

وجدت نفسي أعبر خجلي وأقول:

- أنا فداؤك يا سميرتي.

- سميرتك؟!

- وجليستي وأنيستي الآن.

مدت الورد إليَّ، فأخذته منها وهي تقول:

- أحيانًا يصعب عليَّ فهم كلامك.

ضحكت للمرة الأولى منذ أن دخلت إلى هنا، حتى آلمني جرحي، وقلت:

- أنا مستعد أن أتخلى عن الفلسفة من أجل عينيك.

لكنها فاجأتني:

- لا، لا .. أتمنى لك أن تكون أحسن واحد في الدنيا.

وهممت أن أقوى على ضعفي، وأقول لها الكلمة التي اختزنتها طويلًا في أحشـائي، لكن لم أسـتطع، ووجدت الانكسـار يزحف إلى عينيَّ من جديـد، وأذهب برأسي إلى الناحيـة الأخرى، لكنها فاجأتني من جديد، ووضعـت إصبعها تحت ذقني، وأدارتـني ناحيتها، ثم مسـحت العنبر بعينيها فوجدت الكل لاهيًا عنا، فلثمت خدي بقبلة خاطفة، ارتعش لها جسدي، وزحفت أصابعي لتدخل في أصابعها الطرية الدافئة.

وذابـت مسـافات الصمـت بيننا، فحـرارة جسـدها وروحهـا التي وصلتـني أيقظت الكلام داخلي، وشـجعتني على البـوح، فجذبتها إليَّ، وقلت لها:

- أحبك.

فأغمضت عينيها في خفر، وتنهدت عميقًا، وتركت أصابعها تنام في كفي، ووددت لو توقفت أيامي عند هذه اللحظة لا تغادرها أبدًا، لأنعم في رحاب حبي الأول.

فجـأة فسـد كل شيء، بـردت يدهـا، وسـحبتها سريعًـا، وانبلجت مقلتاها على اتساعهما، وشهقت خائفة، وهي متجهة نحو باب العنبر.

ذهبت عيناي في مستوى نظرها فرأيت شـابًّا حليـق الرأس، له لحية قصيرة مشـذبة وشـارب مقصوص بعناية، وفي جبينه قطـع غائر يصنع خطًّـا أسـود عريضًـا. كان يحـرك أنفـه يمينًـا ويسـارًا بطريقـة متكررة، ويحملق في سريري.

بـدا أنـه كان واقفًا في مكانه منذ مدة، وقـد رأى كل شيء. من المؤكد أنه لم يسـمع ما قلناه وسـط الجلبة التي صنعها زائرو المرضى من جديد، غـير مبالين بتهديـدات الممرضة، لكن ربما يكون قد قرأ حركة الشـفاه،

حين نطقت الكلمة أنـا التي لا تخطئها عين ولا أذن، لاسـيما أنني قلتها في تبتل شديد.

ملت على «سميرة» وسألتها:

- من هذا؟

نفخت في غيظ وأجابت:

- واحد من عصابة «سعد سُلطة».

امتزجت في نفسي مشـاعر الخوف والاشـمئزاز، ولم أجد ما أقوله لها سوى:

- آسف لما جرى.

تماسكت قليلًا، حيث خف الارتعاش والانقباض في محياها، وقالت وكأنها تخاطب نفسها:

- لا أخاف منهم، ولن يجبروني على ما لا أريد.

لكن ملأتني في هذه اللحظة شـكوك عارمـة في أن تصمد هذه الفتاة الشـقية بحالها وحبي في وجه تلك الريـح العاتية، إلا أنني لم أفقد الأمل في أنها قد تستطيع. وقلت لها وهي تلتقط حقيبتها الصغيرة:

- لن أنسى هذه اللحظة مهما حصل.

فابتسمت وقالت وهي تهرول في اتجاه باب العنبر:

- ولا أنا.

(3)

خرجت من المستشفى وحيدًا، ولم يكن هناك أحد في انتظاري، وليس معي سوى كيس من البلاستيك فيه الجبة والعمة والقفطان.

لم أجد صعوبة في أن أمشي بخطوات وئيدة متأملًا المطاعم والمقاهي والحوانيت التي تبيع أصنافًا مختلفة من السلع، حتى وصلت إلى ميدان السيدة.

كان جيبي خاويًا، فالنقود التي ادخرتها من وراء عين «عبد الشكور» تركتها في غرفتي التي سأجبر على الخروج منها سريعًا، وكنت جائعًا ومنهكًا، ومع هذا تأسيت بالبشر والأشياء والمعالم التي أراها في طريقي، واكتفيت بترك أنفي يداعب أبخرة الأطعمة ورائحة الشواء والقلي المنبعثة من المطاعم، ودخان الأراجيل الخارج من أنوف وحلوق الجالسين على المقاهي.

عند الميدان برق في رأسي أن أذهب للسؤال عن مصير الطلب الذي تقدمت به إلى «دار الهلال».

كنت كغريق يتمنى أن يرى أية قشة محمولة على ظهر الموج، ليقبض عليها بكل إرادته أملًا في النجاة. سيطر علي هذا الشعور وأنا أنعطف يمينًا نحو شارع «المبتديان»، وقطعت المسافة إلى موظف أمن «دار الهلال» في زمن أطول من المعتاد.

ولما بان وجهي من الباب العالي، انقبضت ملامح الواقف أمامي وقال:

- ليس هناك جديد.

وزميله الذي ابتسم في وجهي من قبل رق لحالي، وجذبني من يدي حتى أخذ أذني إلى فمه، وهمس:

- سأرسلك إلى رئيس قسم الأرشيف، ربما يكون في حاجة إليك.

ألقيت نظرة فاحصة عليه لأستوثق مما يقول، فواصل كلامه:

- سمعته يشكو من قلة المحررين الذي يعملون معه، وأنه قد كتب إلى رئيس التحرير يطلب المزيد.

وقبل أن أخلع عيني من وجهه، أراد أن يطمئنني:

- لا تقلق، فهو رجل طيب، طالما يجلس معي على مقهى «الهلال» ونلعب الطاولة ... قل له إنك من طرف عم «زهير».

تسربت بقايا الوجع الراكدة في جسدي، وامتلأ وجهي بإشراق الأمل، ورغم ارتفاع السلم وطراوة جرحي، صعدته راضيًا حتى وصلت إلى الردهة الطويلة الفسيحة التي تنفتح فيها مكاتب عديدة، وسألت عن مكان الأرشيف فارتفعت أصابع لتشير إلى أقصى مكان في المبنى.

دخلت في هدوء، فوجدت رجلًا يجلس تحت مشيبه التام، وحوله شباب يمسكون في أيديهم مقصات صغيرة تلمع في شعاع شمس يتسرب من فتحة النافذة، يضربونها في صفحات الجرائد المكومة أمامهم فتصير قصاصات مختلفة الأحجام. هناك آخرون

غيرهم يأخذون ما قصوه ويلصقونه على ورق أبيض وأصفر خفيف بصمغ خفيف، ويكتبون تحته بالأقلام الجافة كلمات لا أراها، وإن كنت أدرك أنها قطعًا مجرد تواريخ أو عناوين أو تعليقات بسيطة على ما ألصقوه من أخبار وصور.

وقفت دقائق أراقبهم، دون أن يشعر بي أحد منهم، وتذكرت «حسونة» والصور التي يقصها ويحتفظ بها ليطارد أصحابها في المساء عند مسجد «عمر مكرم».

أصابني ما رأيت بكآبة شديدة، فأنا أريد أن أكون هنا لأكتب ويقرأ الناس مقالاتي التي سأضع فيها حصيلة ما أعرفه وما سأعرفه، وليس لأجلس إلى مائدة طويلة على كرسي صغير تحت رفوف متربة من المجلات والصحف القديمة، كي أصنع قصاصات وألصقها وأكتب عليها كلمات بسيطة، لا شك أنها أصحاب الصور أو تواريخ الوقائع وأسماء الصحف التي نشرت فيها.

عرفت أكثر حين صارت عيناي فوق أحدهم الذي كان منهمكًا في مهمته، يؤديها بامتنان شديد، ونام ظلي على قصاصاته فرفع رأسه ليجدني. لم يتكلم إنما نظر إلى الرجل الأشيب، والذي كان قد تنبه لي أيضًا.

-خير!

- آسف، دخلت بلا استئذان .. وجدتكم مشغولين فلم أشأ أن أعطلكم.

امتلأت عيناه بالتساؤل:

- من حضرتك؟

- جئت لأسأل عن عمل هنا في الأرشيف.

- من الذي جاء؟

- أنا.

- ومن أنت؟

- اسمي «رفعت عبد الحكيم» ليسانس آداب قسم فلسفة، وطالب دراسات عليا في «جامعة القاهرة»، وقدمت طلبًا منذ مدة للعمل هنا.

- هنا في الأرشيف؟

- لا، لكن عم «زهير» أرسلني إلى حضرتك.

- أين خطاب استلام العمل؟

- لا يوجد معي أي شيء.

هز رأسه والتوَت شفتاه بابتسامة ساخرة، وقال:

- هل وافق رئيس مجلس الإدارة على طلبك؟

- لا أعرف .. لكن موظف الأمن أخبرني بأنه ليس هناك جديد.

- لِمَ أتيت إذن؟

- عم «زهير» أخبرني بأن حضرتك تحتاج إلى محررين جدد، وجئت لأسألك إن كنت في حاجة فعلًا إليَّ.

أزاح السخرية عن شفتيه، واكتست ملامحه بجدية ظاهرة، وأشار بكفيه إليَّ، وملت نحوه، فربت كتفي بحنان وقال:

- الأمر ليس بيدي يا ابني .. عمومًا اجلس واكتب طلبًا لي، وقدم المشيئة.

وجلست على مقعد في طرف المائدة الطويلة، وأمدني أحد الشباب بورقة بيضاء وقلم، فكتبت طلبي بلغة تلين لها القلوب العاصية القاسية، وأعطيته إياه، ومضيت إلى الباب الخارجي، وأنا أقول في نفسي: «خطوة واحدة إلى الأمام أفضل من الوقوف في المكان».

(4)

قبـل أن أدخل الزقاق لمحت الذي طعنني قادمًا من مسـجد سـيدي «محمـد الموارد»، كان يطالع القبة الخضراء باسـتهانة، ويشـيح بيده في وجه النوافذ الصغيرة ويقهقه، وجسده يرتج حتى يكاد يصطدم بالجدار ثم يعود إلى نهر الشارع.

بـدا لي أنه مخمور، ولمـا اقترب مني فاحت رائحـة الكحول من فمه، لكنه لم يكن فاقدًا وعيه تمامًا.

عرفني، وقال لي باستهتار:

- كفَّارة يا عم الشيخ.

لم أرد عليـه، ومضيـت في حالي متسربلًا بظل جـدران تكاد تتلاقى، لكنـه لم يتركنـي أذهـب في سـلام، بـل سـبقني بخطوات، ثـم اعترض طريقـي، وقفـت فدفـع قدميه حتـى وضع جبهتـه في جبهتـي، وأنفه في أنفي، ويده على كتفي، وداس عليه، وبعدها فتح فمه:

- عيشك خلص هنا.

زحت يده في هدوء، وقلت له:

- أنا ماشي.

وظهر «أبو عوف» في انحناء الزقاق وفي يده رفرف سيارة، واقترب وسمع طرفًا من الحديث، فقال دون أن ينظر إليَّ:

- اقصر الشر يا «سُمعة»، خلاص الراجل ماشي من هنا.

وفرق بين جسدينا شبه المتلاصقين، وأخذ «سُمعة» في يده، وراحا يتضاحكان، أما أنا فقد تقدمت نحو البيت صامتًا. مشيت وصوت «عم خليل» يرن في أذني وهو راقد على جنبه الأيمن والذباب يكسوه:

- قادر على كل شيء.

بعد دقيقة واحدة واجهت «عبد الشكور». كان كاسف البال، شفتاه مقددتان، وعلى وجهه رهق، وُيضيِّق عينيه وكأنه لا يريد أن يراني. لكنني، وعلى النقيض من المرات السابقة، اقتحمته بقوة، وقلت له في اشمئزاز:

- يا خسارة الرجال!

تأرجح في مكانه متبرمًا، وقال في حدة:

- لا تسئ الأدب.

وملأ شيبه عيني فخجلت من نفسي، وقلت كالمعتذر:

- لا تغضب مني، فعشمي فيك كان كبيرًا.

مسح وجهه بكفه، وفتح عينيه فاتسعتا حتى ظننت أنهما ستبتلعانني، وصمت برهة ثم نطق:

- لست ضعيفًا، لكنني أخشى على أولادي.

وضعت قدمي على أول السلم فتوارى نصف جسدي عنه، وقلت له قول مودع:

- أشكرك على كل شيء، كانت أيامًا لا تُنسى.

ووضعت إلى جانبه على الكنبة الكيس الذي يحوي قفطانه وجبته وعمته، وأعطيته ظهري، وصعدت على مهل، حتى وصلت إلى السطوح.

وبينما كنت أسير نحو باب غرفتي، سمعت صوت «سميرة» يقول:

- حمد لله على السلامة.

التفت فوجدتها واقفة خلف حبل الغسيل الذي كانت عليه قطع قليلة رأيتها على أجساد إخوتها. مسحت السطوح المجاورة بعيني في سرعة، فخطفني القرص الأحمر لشمس تتأهب للرحيل، والذي كان يحط على كتفها اليمنى، ويتسرب إلى خدها الأسيل، فيمنحه لون الورد الذي تبيعه.

لم يكن أحد في هذه اللحظة فوق بيته سوى سيدة تعطينا ظهرها، وتتحرك فوق بيت بعيد، وهي تمسك في يدها شمروخًا طويلًا، تهش به دجاجات متناثرات كي تدخل إلى خنانها، وتنتظر نومها المبكر الطويل.

لم تكن هذه السيدة منتبهة لنا، ولا يمكنها أن تسمعنا. وانطلق أذان المغرب من مسجد «المواردي» ليغطي على أي كلام بيننا.

دارت «سميرة» برأسها في كل الزوايا ثم قالت:

- قد يفاجئنا أحد على أي سطح مجاور .. تعالَ نكمل كلامنا داخل غرفتك.

هزني ما قالته، ونبح جرحي، ووجدت قدميَّ تهرولان نحو الباب. فتحته ودخلت سريعًا، وتركته مواربًا، والتفت إلى الخلف فوجدتها واقفة تنظر حولها.

في خفـة طير صارت معـي وأغلقت الباب خلفهـا. تفصد عرق من جبهتـي، وضغطـت على نفسي لعلنـي أقتل بعض مخـاوفي، خاصة حين قالت:

- ابن الكلب يراقبني في الرايحة والجاية.

وكنت أعرف عمن تتكلم، فقلت لها:

- ما تفعلينه سيزيده سُعارًا.

صمتت قليلًا، وردت في اتجاه لم أتوقعه:

- هل تعاهدني أن تكون لي؟

- ضحكت وأجبتها:

- لا تنسي أنني أشتري طوال الوقت وأنت التي لا تقدرين على البيع في أي وقت.

بدا عليها أسى، وابتلعت ريقها، وقالت:

- طالما حولتها إلى بيع وشراء، فعليك أن تتحمل غدر السوق.

وشعرت أنني أقسو عليها، وأحملها ما لا طاقة لها به، فأنا من يجب أن يتحمل الغرم كله عن طيب خاطر، وأنا من يجب أن تتوسم فيه هي القدرة عـلى حمايتهـا عاجز عن حماية نفسـه، وأبدو أمامهـا في صمتي وشرودي أو في كلامي الغارق في الحيرة والتردد مستسلمًا لما سيأتي، ولا تظهر عليَّ أيـة علامـات تطمئنها إلى أنني سـأتصدى لـ «سـعد سُـلطة» في يوم من الأيام.

ربما فهمت هذا حين قلت لها ذات مرة في شأن غريمي:

- اصبر على جار السوء، يموت أو يرحل.

ها أنا لا أملك إلا انتظار رحيله، وأنَّى له أن يرحل، وحتى إن رحل عن «تل العقارب» فسيصر على أن يأخذ «سميرة» في يده. أما الموت فوارد لشاب واقف على حافة الخطر مثله. لكن الأعمار ليست بيدي ولا بيد «سميرة»، ولا أحد يعرف من سينقضي أجله أولًا.

ليـس مطلوبًا منها أن تعلق آمالها على حبال الغيب التي لا تملك فيها شـيئًا، ولن تنفعها فلسفتي عن الإرادة الإنسانية الجبارة التي بوسعها أن تزلزل الجبال.

قلت لها وهي جالسة بين عينيَّ:

- بوسعنا أن نفعل ما نريد.

لوت شفتيها متشككة في قولي، وقالتها في صراحة تامة:

- هم كثيرون وأنت وحدك.

ولذت بانكساري، لكنني مددت يدي إليها وأخذت كفيها الدافئتين، وقلت لها:

- روحي فداؤك.

سحبت يديها وقالت في جدية:

- أنت لك مستقبل فلا تضيعه، ولك أهل ينتظرونك فلا تضيعهم.

وهـزني مـا قالته بهـذا الإحـكام، وتذكـرت حديثها عـما تعلمته من الشـارع والأيام والليالي، وأدركت جيدًا أنها لا تطرد الواقع من رأسـها أبدًا، فحياتها هنا وسط البيوت التي تعلن عن الرغبة الدائمة في الانهيار، ودورانهـا على الكورنيـش تبيع الجمال لقاء قروش زهيدة علمها أن تظل

مستيقظة طيلة الوقت لأفعال الحياة معها ومع من حولها مهما كانت هذه الأفعال صغيرة أو تافهة.

تقف مستسلمة لتصاريف الواقع وهو يحفر أخاديد في نفسها ويدق أوتادًا، ويقرر إقامته إلى أجل غير مسمى، وانتباهه الكامل حتى في اللحظات المشبوبة بالغرام.

هكذا وجدتها عقلًا لا ينام، وكنت أنا الذي يتيه بعقله على الناس، يحلم بأن يجد ذات الروح الخالصة فيعشقها.

وقلت لنفسي: ربما أسرني جمالها الأخاذ وعطر ورودها التي تبيع وعفويتها، وظننت أنها الفتاة التي عندها ما ليس عندي، نصفي الآخر. لكن كل هذا كان محاولة فاشلة لاستيعاب ما جرى، وإجابة السؤال الذي لا إجابة له: لماذا عشقتها؟

ووجدت أنه من الأجدى ألا أسأل وألا أنتظر إجابات، ولا حتى أنتظر ما سيأتي، بل أعيش اللحظة الراهنة على أنها الأخيرة، وبعدها الرحيل عن هنا أو الموت.

هكذا حسمت أمري، وقررت في هذه اللحظة ما سأفعله في قابل الأيام. اقتربت منها، وأطلقت في ملامحي طاقة هائلة من الامتنان والافتتان والرغبة المحمومة، وشحنت صوتي بوجع وشغف ولهفة، وزحفت إليها في هدوء، وأخذتها إلى صدري، وضغطت على جسدها اللين، ثم تركت شفتيَّ تلثمان جيدها وشحمتي أذنيها في حرارة وتبتل. ولما سمعت شهقاتها وأناتها اللطيفة اعتصرت شفتيها في نهم شديد. وكانت يدي تمسد شعرها الناعم، فلما انزلقت إلى عمودها الفقري

ووصلت إلى عجيزتها فرت مني. ابتعدت وهي جالسة، ثم وقفت ترتجف قليلًا، وعدَّلت هندامها، وجرت نحو الباب وهي تقول:

- تأخرت على أمي.

وقبل أن تخرج قلت لها:

- عازمك بكرة على «سينما الشرق».

هزت رأسها موافقة ثم فتحت الباب، وخرجت سريعًا، وسحبته وراءها، وتركتني ألملم بقايا شهوتي المبعثرة على السرير المتداعي، وأنفض عن روحي بعض عذابها.

وتراءت على الحائط المفروش بالظلام صورة «سعد سُلطة» فأخرجت له لساني، وبكل ما أوتيت من قوة بصقت عليه.

(5)

استيقظت مفزوعًا من حلم ليلة بدأت رائعة، كنت أستعيد فيه البهجة التي تبادلتها مع «سميرة» بُعيد الغروب. وضعت يدي على وجهي فلامست بللًا غزيرًا. نهضت ومشيت نحو قابس الكهرباء فإذا بالأرض مبتلة أيضًا، ووشيش يطبق على الغرفة من الخارج، يتخلله تقاطر ماء يصنع تكات خفيفة في الجهات الأربع.

حين امتلأت الغرفة نورًا رأيت قطرات متتابعة تتساقط من السطح، وخيط ماء رفيعًا يخر فوق الدولاب المكسور. فتحت الباب فإذا بزخات المطر العفي تتوالى فوق الأسطح، وسمعت قرقرة دجاج استيقظ مفزوعًا مثلي، وماءت قطط كانت منكمشة تحت جدر عارية، واقتحمت أنفي روائح كريهة، رجحت أن يكون ماء السماء قد فقأ مواضع عفن في القمامة المكدسة في البيت المتهدم المهجور الذي يقع خلفي.

عدت مسرعًا لأجد الوسادة قد ابتلت، وكذلك الجانب الأيسر من السرير. وخفت أن يتحول قطن المرتبة الخفيفة إلى عجين، فسحبتها إلى البقعة اليابسة من الغرفة، وجلست على كرسي البلاستيك الذي يواجه طاولة صغيرة وضعت عليها كتبي. وكنت فزعت حين حطت عيناي على الكتب خوفًا من أن يكون الماء قد نال منها، لكنني وجدتها على حالها قبل المطر.

انتظرت أن يتوقف المطر، والتقطت كتابًا عن الفلسفة اليونانية أقتل به الوقت، لكن الكهرباء انقطعت فجأة، وغرقت غرفتي في ظلام شامل. ومع العتمة ارتفع صوت المطر، وقدرت أنه أخذ يهطل بشدة، فزاد الخرير فوق دولابي، وتسارع تتابع القطرات على سريري.

وجاءني صوت من أحد البيوت المجاورة:

- استرها يا رب.

وسمعت امرأة تقول، وكأنها تنظر من نافذة في عمق السماء:

- سيقع البيت إذا استمر المطر.

وصرخ طفل فراحت أمه تهدهده، لكن بلا جدوى. وضاع صوته في نباح الكلاب، الذي كان يدوي في اتجاه الغيوم المثقلة بالمياه.

وتملكني إحساس بأن السقف سيسقط فوق رأسي، فعزمت على أن أهبط إلى الشارع، لأجلس على المقهى، وربما أجد «عبد الشكور» مستيقظًا أو أحدًا من أولاده فأسامره.

ارتديت لباسًا ثقيلًا لم يطله البلل، وفوقه معطفًا أسود من الجلد الرخيص، تقشَّر من ظهره وصدره، وبانت طبقته الرمادية الداكنة.

في أسفل السلم، الذي غرق أعلاه بالماء، وجدت باب الطابق الثاني مغلقًا، وسمعت شخيرًا حادًّا. وكان باب الطابق الأول مغلقًا أيضًا، وغطيط «عبد الشكور» واضح لأذني، رغم الفرقعات الخفيفة التي تصنعها زخات المطر فوق الورق والقش والأحجار الصغيرة وأكياس البلاستيك الملقاة على الأرض.

لم يكن هناك بد من الخروج إلى الزقاق، الذي صار لجة، إلا من شريط ضيق تحت الجدار الأيمن، تحسسته بقدميَّ، ثم مضيت نحو شارع «بور سعيد». على الناصية وجدت «عم خليل» مسجى ببطانيته القديمة الغارقة، وأنينه يشرخ الهواء.

كانت المقاهي مغلقة في تلك الساعة المتأخرة. مشيت نحو باب مسجد «المواردي» فوجدته موصدًا، وبعض مياه الأمطار تتجمع في المجرى المحفور أعلى جداره ثم تفيض قوية من قَطوع ضيق في طرفه الأيسر، وتخر على الأرض وتجري في اتجاه الأرض الواطئة أمام المقاهي، وتحت عربات أصحاب الفاكهة التي كانت مغطاة بقطع كبيرة من المشمع، ولا أحد يقف إلى جانبها.

كنت قد نسيت ساعة يدي تحت الوسادة، ولم أبعدها عن البلل، ولم أنظر فيها لأعرف ما تبقى من هذه الليلة العصيبة.

أين أذهب؟ هل أحتمي بكوبري «زينهم» أم محطة مترو السيدة؟

وزمجرت الريح فأجابت عن تساؤلي، وساقتني في طريق البحث عن مكان مغلق ودافئ ويابس، وكان نفق محطة المترو، الذي طالما قطعته ذهابًا وإيابًا في النهارات والأمسيات ومطالع الليالي.

انعطفت يمينًا إليه، كانت فوهته مظلمة، وأولى درجات سلمه زلقة. هبطت ثلاث درجات، فالتقت قدماي بالأسمنت المتسخ المبلل، وهكذا حتى صرت في الأسفل المعتم.

مددت عيني في العمق، فرأيت بقعًا صغيرة حمراء، تتوهج وتنطفئ، وكبس دخان السجائر على أنفي، لكني كتمت نفسي، وخفت أن أشهق

فينكشف أمري. لكن كل هذا ضاع حين اقتحم أذني توجع أنثى وفحيح ذكر، يضغط عليها، ويجبرها على ما لا تطيق.

صرخت فيه:

- من ورا لا يا معلم «سعد».

لكنه غمغم وداس عليها وقال:

- من قدام تحبلي، ويحسبونك عليَّ واحدة يا بنت الزانية.

وتأكدت أنه «سعد سُلطة»، دلني صوته عليه، ورأيت قفاه، الذي أعرفه جيدًا، حين توهج عود ثقاب في يد ولد يجلس قبالته، ليشعل سيجارته، ثم لم يلبث أن انطفأ حين نفخ فيه، مدفوعًا بصرخة «سعد»:

- أطفئ النار وإلا سأجيء بك مكانها.

كان لا يريد لأي منهما أن يرى مؤخرته العارية، التي لمحتها في اللحظة التي توهج فيها عود الثقاب، وبنطاله قد انحسر عنها، وهو يجثو على ركبتيه، مستسلمًا لسعار الشهوة العارمة، ومادًّا ذراعيه ليمسك البنت من كتفيها، ويجذبها إليه.

صرخت فريسته من جديد:

- لا تضربني وتشد شعري .. حرام عليك.

- حُرمت عليك عيشتك، أنا سأذبحك، وأشرب من دمك.

غمغمت وجأرت كأنها حيوان يذبح:

- تعبانة قوي.

ضرب جدار النفق بيده ففرقع، وصرخ فيها:

- هيحصل غضب عنك.

كانت العتمة قد راقت أمام عينيَّ، وأصبحت أرى ما يجري أمامي، كأنه مضاجعة بين شبحين، أو مشهد مقزز في فيلم قديم، أبيض وأسود، يشاهده مجموعة من العجزة الصامتين. كان الأولاد ذوو الوجوه الضامرة والملامح الغائبة خلف الوسخ والعتمة، يتابعون ما يجري في حياد غريب، وهم ملتصقون كقطط جوعى يرجفها الصقيع. بعضهم يجلس القرفصاء، وبعضهم يتربع على الأرض، وهناك من يميلون على جنوبهم، وثلاثة منهم واقفون، أحدهم في الجانب الأيمن، الذي يفعل فيه «سعد» فعلته، واثنان عند الجدار المقابل.

خفت أن ينتبهوا لي، ويروني كما أراهم، شبحًا مثلهم، فجلست مكاني القرفصاء، وواريت وجهي في كفيَّ، وأرسلت عينيَّ من بين أصابعي.

كان «سعد» قد تمكن من البنت، وتوالت صرخاتها، فكتم فمها بيده، وراح يطعنها بقوة. وسمعت ولدًا يجلس إلى جانبي يطلق فحيحًا حارقًا، ويده بين فخذيه، وكان آخر يفعل مثله. وصرخت بنت من الطرف الآخر في ولد:

- ابعد عني يا «صلاح».

وسمعت لطمته على خدها، فزعقت فيه:

- روح اتشطر على المعلم «سعد» ... أخذ منك «فاتن» ونايم معها قدامك.

وتقدم شبح من الولد والتحم به، وجرى الأولاد والبنات نحو المشاجرة، و«سعد» مشغول بتفريغ حرقته ولهفته، فوجدتها فرصة

سانحة كي أجرى إلى الخارج فجريت، فإذا بالمطر قد توقف، وصفت السماء، وانطلق أذان الفجر من مسجد «المواردي» عذبًا نديًّا، فتقدمت حذرًا بين البرك الصغيرة والطين اللزج حتى وصلت إلى باب المسجد، فخلعت حذائي ودخلت.

(6)

طرقـات مدويـة خلعتنـي من نـوم عميق بعد هـذه الليلـة العصيبة، وكادت تخلـع الباب نفسـه. هرعـت إليه فوجدت «حسـونة» واقفًا وفي عينيه انزعاج شـديد، وقبـل أن أنطق كلمة واحدة، اندفـع إلى الداخل، وأمسك بكتبي الموضوعة فوق الطاولة، ورفع منها ما استطاع حمله وهو يقول:

- خبئ كتبك، الشرطة تفتش كل الشقق المفروشة.

نظرت إليه بسخرية، وقلت:

- الشقق، لكن هذه مجرد غرفة تعيسة.

أشاح بيده في وجهي، حتى كادت أصابعه تخرق عيني، وقال:

- يفتشون حتى الجحور التي يسكنها الغرباء.

- والسبب؟

- يبحثون عن إرهابيين.

توقف في منتصف الغرفة المبتلة، وسألني:

- ألديك هنا ممنوعات؟

- ممنوعات!

- كتب، منشورات، ورق كتبته بنفسك فيه معارضة للحكومة؟

نفخت في ضجر، وهززت رأسي مستخفًا به:

- لا شأن لي لا بالأحزاب ولا الجماعات المتطرفة.

تنهد بارتياح:

- الحمد لله.

ومع هذا جرى بالكتب إلى الخارج حتى وصل إلى كرتونة مبتلة ملقاة في الركـن، وأزاحهـا بقدمه، فظهرت تحتها كومة قـش ترنحت من مطر الليلة الفائتة. نظر إليها وناداني:

- تعال بسرعة.

ذهبت إليه متباطئًا وسألته في تبرم:

- ماذا تريد؟

- ارفع القش.

- لم؟

- لأخبئ الكتب هنا، في هذا المكان اليابس.

- لكن هذه كتب في الفلسفة لا تعني الحكومة، ولن تقلقها.

- فلسفة أو بطيخ، الحكومة لا ترحم هذه الأيام.

ونظر إليَّ محاولًا أن يستعلي عليَّ، وقال:

- لو كنت تقرأ الجرائد مثلي لعرفت أن أعصاب الحكومة منفلتة من الإرهاب الذي يضرب في كل مكان.

قهقهت ورددت في سخرية:

- تقرأ أم تقص الصور؟

لم يعبأ بما قلت، وراح يرص الكتب بعضها فوق بعض، ثم التفت إليّ قائلًا:

- لا تضيع الوقت، هات بقية الكتب، وأي شيء مكتوب يدل على أنك تعيش هنا.

ورآني أمشي متثاقلًا، فجرى وتجاوزني بعد أن ضربني بكتفه، ودخل الغرفة، ورفع مجموعة أخرى من الكتب والكراسات، وعاد إلى الركن، وهكذا حتى تجردت الطاولة من كل شيء.

نظرت إليه في ضيق وقلت:

- نسيت شيئًا مهمًّا في الغرفة.

نظر إليّ بانزعاج وسأل:

- ما هو؟

ضربت جبهتي بيدي، وقلت ضاحكًا:

- الأقلام.

لوى شفتيه وقال:

- لا تأخذ الأمور باستخفاف .. أخذوا طلابًا كثيرين معهم إلى القسم بعد أن وجدوا عندهم أشياء تافهة.

ثم بطريقة أكثر خشونة:

- إذا كنت تريد أن تروح في داهية أنت حر، لكن ما ذنبنا نحن أصحاب البيت، الذين أجرنا لك الغرفة.

ملأت عيني من ملامحه الماكرة، وقلت في غيظ:

- لن يجرؤ أي شرطي أن يدخل غرفة لم يبق في عمرها سوى ساعات قلائل.

أدرك ما أقصده، لكنه سعى إلى التأكد:

- أتقصد السقف الذي بلله المطر؟

- السقف والأرضية والجدران، وحتى العفش.

- لا تخف، كثيرًا ما حدث هذا وانتهت الأمور بسلام.

ودخل الغرفة مرة أخرى، أزاح الدرفة المكسورة من الدولاب فهوت على الأرض، وقضمت قطعة من الأسمنت اللين، ونظر إلى الملابس وقال:

- ربما تكون قد نسيت كتبًا في الدولاب.

ورفع مرتبة السرير التي كانت حافتها قد شربت من المطر حتى اكتفت، ونظر تحتها، فلم يجد شيئًا.

وبعدها سحبني من يدي، وأخرجني من الغرفة، وأغلق بابها. وسمعنا صوت «عبد الشكور» الأجش يقول:

- لا يوجد أحد هنا يا سعادة البيه.

ارتبك «حسونة» واصفر وجهه، والتفت حوله ثم قال:

- تعال معي.

- إلى أين؟

- سنذهب إلى مكان آخر حتى يعاين الضابط غرفتك وينصرف.

- أي مكان؟

- لا تجادل، ليس لدينا وقت.

وسحب يدي من جديد، حتى السور الخفيض للسطح، دار ببصره في الجهات الأربع بسرعة خاطفة، ثم صعد وأمرني:

- اصعد، واقفز معي.

وقفت مكاني معاندًا، فقال لي بصوت يختلط فيه التحذير بالاستعطاف:

- ربما يكون «سعد سلطة» أبلغ عن إرهابي يسكن في غرفة فوق بيتنا، وجاءوا للقبض عليك.

لم يكن الاستخفاف قد زال عن نفسي بعد، فسألته:

- إن كان قد فعل فهل صدقوه؟

داس علي يدي بقسوة وأجاب:

- هو رجلهم، وإن لم يصدقوه سيجاملونه.

سقط قلبي في قدميَّ، لكن هذا لم يفقدني القدرة على تحريكهما إلى الأمام بقوة، وإلى أعلى، فأصبحت مع «حسونة» فوق السور، وقفزنا إلى سطح بيت الجيران، ثم هبطنا على السلم إلى الزقاق، وجرينا نحو الميدان الصغير، حيث حنفية المياه، والكلاب الضالة الجائعة، والنسوة اللائي يملأن الصفائح والقدور، والبط الذي يلهو بين أرجل العابرين، ويندفع في نهم نحو أكوام القمامة الراكدة في جنبات المكان.

حين وصلنا إلى سور المترو اكتشفت أنني أرتدي لباس النوم، وأنني نسيت نقودي القليلة تحت الطرف غير المبتل من الوسادة، فانقطعت

بي السبل، حيث لم يكن بوسعي أن أذهب إلى الجامعة، أو أجلس على المقهى، لاسيما أن «حسونة» تركني أجري إلى الأمام، وعاد هو يجري إلى الخلف، عائدًا إلى البيت بعد أن تخلص مني في أزقة لا يعرفني فيها أحد.

انتظرت ساعتين أتحرك على هيئتي تلك تحت السور ذهابًا وإيابًا، حتى وجدت مقهى صغيرًا، في بيت قديم ينام تحت شجرة عجوز، تقدمت على استحياء، ثم توقفت، وسكن التردد نفسي، لكن النادل البسيط رآني، فدعاني بابتسامة عريضة:

- تفضل.

اقتربت منه وقلت له:

- أمر طارئ جعلني أخرج هكذا، ونقودي في جيب قميصي.

واصل ابتسامته:

- كلك فلوس، ولا يهمك، اطلب ما تعوزه.

جلست وطلبت كوبًا من الشاي وحجر شيشة، فجاءني بهما على الفور. رشفت قليلًا من الكوب، وسحبت نفسًا كثيفًا من الدخان، فسعلت بشدة، وشعرت أن صدري يرتج ويكاد يسقط على الطاولة الصغيرة متآكلة الأطراف.

جاء النادل أمامي، ونظر إليَّ بإمعان، ولم يكن هذه المرة يبتسم، وقال:

- واضح إنك جديد في التدخين.

كتمت السعال بعد أن تخلصت من بقايا الدخان الحبيس في صدري، وهززت رأسي:

- فعلًا.

وجدت عينيه تمتلآن بالاستهانة وقال:

- بكرة تكبر.

غاظني كلامه، فقلت له:

- ما طلبته سأدفع ثمنه، ولا داعي للإهانة.

لم يرد، بل تقدم نحو الشيشة والمجمرة في يده، وزاد على حجر المعسل ثلاث جمرات، وقال:

- الحساب مدفوع.

رفعت عينيَّ إليه باستغراب، لكنه لم يدع وجهي معلقًا على دهشتي طويلًا، وقال بعد أن عادت إليه الابتسامة، لكنها كانت مفعمة بالاحتقار والتهديد هذه المرة:

- المعلم «سعد سُلطة» يُصبِّح عليك، ويخبرك أن ما جرى قرصة ودن وعليك أن تتعظ.

(7)

عدت بعد ساعة أمشي على أصابع قدميَّ، لأجد رجال الشرطة قد رحلوا، و«عبد الشكور» يجلس مكانه يسعل، وتجحظ عيناه، ويحملق في الجدار المتآكل للبيت المواجه، ويرقب الفئران التي تمرق من أمامه أحيانًا.

ما إن رآني حتى قال لي، وهو يضرب الهواء بأصابعه:

- راحوا.

وأشار بيده إلى جواره فجلست صامتًا، وأنا أنظر إليه أطلب منه تفسيرًا لما جرى. وضع يده على ركبتي، وداس عليها، وقال:

- أتحمل من أجلك ما لا يطاق.

شعرت بالأسى والأسف، وقلت له بكل جدية:

- سآخذ كتبي وملابسي وأذهب من هنا لتتوقف متاعبك.

أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، ثم عاد إليَّ، وقال:

- لا، إذا كان على الولد «سعد» روحه في يدي.

استغربت كلامه، ونظرت إليه وفي عينيَّ سؤال، فأجابني:

- هو يحب ابنتي فيطيعني، وتلين خشونته بين يدي، وأنا ألوعه لأكسب وقتًا، وستأتيه ضربتي في اللحظة المناسبة.

زاد استغرابي، وقلت له في عجب:

- تضربه؟!

ضحك عن أسنان مثرمة، وقال:

- لا تستهتر بي .. يجعل الله سره في أضعف خلقه.

وحين وجد الشكوك تسكن ملامحي، داس على أسنانه وقال:

- في ترحالي الطويل مر بي كثيرون مثل «سعد»، وكانت نهايتهم محتومة، قتلى ولا يعرف أحد من قتلهم، أو محبوسين في زنازين باردة.

وقبل أن أقوم، جذبني من يدي وقال:

- أتعرف لِمَ ذهبت الشرطة من هنا؟

- لا أعرف.

- جاء «سعد» وهمس في أذن الضابط، فانصرف.

- ماذا قال له؟

- حين حضرت الشرطة فهمنا أن «سعد» قد دس لك، فجرت «سميرة» إليه ونادته من على المقهى، وقالت له إنك قريبنا، وإن أمك أرضعتها وقت أن كانت صغيرة، وهي في زيارة لبيتنا، وإنك لا تحل لها.

- وهل صدقها؟

- أراد أن يصدقها فصدقها، وهو لا يتخيل أنه يسمع منها كذبًا.

ضحكت وقلت:

- يا لها من بنت ذكية!

- ألم أقل لك إنني وضعت نطفتها لتكون كما أتمنى .. كانت «سميرة» القديمة ذكية أيضًا.

صمت برهة وعدت لأقول:

- لكن هذه الكذبة لن تطول.

- على الأقل تكسبنا وقتًا.

مسكت يده، ودست على أصابعه وقلت:

- أنسيت يا عم أن نهاية الوقت قد تم تحديدها، ولن تتغير بكذب جديد.

- عم تتحدث؟

- بلوغ «سميرة» سن الثامنة عشرة.

الفصل الخامس

(1)

لم أجد النقود التي كنت قد دسستها تحت الطرف الذي لم يطله المطر من وسادتي، ضربت عيني ويدي في كل مكان في الغرفة فلم أعثر على شيء. أيقنت أن «حسونة» سرقها قبل أن يطردني مذعورًا إلى الأزقة الغارقة في الطين والبؤس والأحلام الميتة.

ارتديت ملابسي، وهبطت غاضبًا إلى «عبد الشكور» وواجهته بما جرى، فرد في برود، بما لم أتوقعه:

- من أين لك بما سرقه؟

- فلوسي.

- لا، هي الفلوس التي خبأتها مني.

- أعطيتك الكثير.

- وأخذت أيضًا الكثير، وكان اتفاقنا أن تعطيني كل ما في جيبك في نهاية اليوم.

ونظر إلى أسفل الكنبة، وقال:

- لا تقلق، عدة الشغل موجودة وتنتظرك.

وقفت والغضب يشعل في جوفي نارًا، وصرخت فيه:

- لن أفعل هذا مرة أخرى.

قابل غضبي بضحكة مكتومة، وسألني:

- كيف ستبقى هنا إلى جانب دراستك؟

- سأعمل.

- وهذا عمل.

- لا، هذا تسول.

- كل واحد يلتقط رزقه بما يعرف.

- وأنا أعرف طرقًا أخرى لأكسب قوتي.

سعل وتمخط وبصق في الفوطة الملقاة إلى جواره، وقال في هدوء:

- ربنا يوفقك.

سرت خطوات نحو الخارج، ونظرت إلى عمق الزقاق، فوجدت طفلين يشوطان علبة سلمون فارغة، ويجريان خلفها، ثم يتصارعان على من يحوزها بقدمه، ويمررها من بين رجلِ الآخر.

عدت إليه بوجهي، وقلت له:

- ما لك عندي هو أن أدفع لك أول كل شهر إيجار الغرفة.

رمى عليَّ نظرة شاملة وقال:

- أنا أعتبرك ابني، وكنت أتمنى أن تفعل ما يفعل أولادي.

زاد غضبي ونفحت في وجهه، وقلت:

- فارق كبير بيني وبينهم، أنا هنا لأتعلم، لا لأتسول.

فارقه حلمه فطوح يده في الهواء كأنه يلطمني، وقال بعينيه الكثير، أما شفتاه فنطقتا:

- روح، وحين تهدأ نتكلم.

رحت كي تعمل يدي ما دار برأسي وأنا جالس على المقهى الصغير. شعرت لحظتها بالغربة المهينة، وانهالت عليَّ الذكرى، وجاءتني الحكايات التي سمعتها من أبناء قريتي حين كانوا يحلون على «القاهرة» للعمل في المعمار، يقبضون على الفئوس والأزاميل يهدمون بها الجدر القديمة، ويرفعون الطوب والرمل والزلط إلى الأدوار العليا، ويحملون قصعات الأسمنت الطري بعد أن يملأها الكرَّاك، ويصعدون السقالات الخشبية، وكان بعضهم يكشف عن كتفه ويريني الحفرة التي صنعتها القروانة، واللحم الأحمر الذي يظهر في قعرها.

كان هؤلاء العائدون من «القاهرة» يجلسون على المصاطب في الليالي القمرية يرمون على أسماعنا مكابداتهم هناك بين بناية تقع وأخرى تقوم. كانوا يحكون بافتخار بعد أن يكون عرقهم قد جف، وجيوبهم قد استقر بها ما يجودون به على أهليهم الذين انتظروهم متلهفين شهورًا.

وكنت أنا طفلًا صغيرًا يجلس على الأرض حولهم، أو يقف على حواف جمعهم السهران، ينصت بإمعان، ويطلق لخياله العنان ليرسم هذه الشوارع التي يتحدثون عنها، وتلك البنايات والوجوه، وأسماء المهندسين والمقاولين وخصالهم.

وكانت أسماء بعض أصحاب الأعمال، وأسماء الشوارع لا تزال محفورة في رأسي، فقطعت شارع «بور سعيد» هرولة حتى وصلت إلى

ميدان «السيدة زينب» وهناك سألت عن المقاول «سالم رمضان» فقال لي رجل يجلس على المقهى الكائن في أول شارع «أحمد بن طولون»:

- امش في طريقك، لا تذهب يمينًا ولا شمالًا، ستجده هناك جالسًا تحت آخر عمائره الجديدة.

توغلت في عمق الشارع بين بنايات جديدة وأخرى تعود إلى قرون غابرة، حتى وجدت نفسي أمام رجال يكدحون تحت ظل بناية شاهقة، بعضهم يحملون أكياس رمل ثقيلة، وآخرون يحملون الطوب الأحمر بعد أن يرصوه فوق حبل متين، ويرفعوه على ظهورهم التي يحنونها وهم يعبرون إلى السلالم الرخامية، وآخرون يحملون شكائر الأسمنت وأقفيتهم مُغبَّرة.

ورأيت إلى جانبهم رجلًا سمينًا يرتدي بذلة أنيقة بلا رابطة عنق، ويجلس فوق مقعد من البلاستيك المقوى، وأمامه شيشة ضخمة، كأنها أعدت خصيصًا له، وطاولة صغيرة من المعدن عليها كوب من عصير الليمون. كان باسطًا كفه أمامه، ليلمع في إصبعه خاتم غليظ من الذهب، وفي إصبع آخر خاتم من العقيق، وفي المعصم ساعة لم أر مثلها من قبل.

كانت الساعة وخاتم الذهب يلمعان بين لمعتين، صلعته العريضة وحذائه الأسود، لكن كل شيء كان ينطفئ حين ينفث الدخان الكثيف، ويصنع حول رأسه سحابة سوداء رقيقة.

سألت أحد العمال المنهمكين في تعبئة كيس رمل عما إذا كانت هناك فرصة شغل، فأشار إلى الرجل وقال:

- روح للحاج «سالم».

وقفت أمامه دون أن يشعر بي، كانت عيناه ذاهبتين إلى عجيزة تترجرج لامرأة تمشي على مهل نحو بائعة خضار تجلس خلف مشنات متراصة عند الجدار المقابل، وحين جلست المرأة، عاد ببصره إلى الأمام يتلمظ، فوجدني واقفًا أتطلع إليه. حملق في وجهي، وقال:

- خير؟

- عاوز شغل.

- أي شغل؟

- أنا طالب في الجامعة وأريد أن أعمل لأدبر مصروفاتي.

- فيك البركة يا ابني، الشغل ليس عيبًا، واليد البطالة نجسة، ربنا يُكثر من أمثالك، روح للمعلم «فرج» وقل له إن أنا من أرسلك.

وذهبت إلى من أرسلني إليه، فمسحني بعينيه وقال:

- هل اشتغلت في المعمار من قبل؟

- لا.

هز رأسه، ومد يده إلى قميصي، وقال:

- أمعك لبس قديم؟

- لا.

استدار، ونظر هناك حيث كومة من الخشب، وأكياس من المشمع النظيف، وأشياء أخرى مموهة بألوان صفراء وبنية وخضراء داكنة زيتية، وغمس إصبعه في الهواء ناحيتها وقال:

- هات لك أفرول، والبسه.

لمَّا وصلت إلى هناك عرفت أنها ملابس جيش قديمة يلبسـها العمال، وكنـت قـد رأيـت أحد الذيـن يرفعـون الرمل يرتـدي مثلهـا. التقطت أحدهـا وعدت إليه، فأشـار إلى مكان محصور بين جـدار ولوح عريض من الخشب الحُبيبي، وقال:

– اخلع ملابسـك هناك، والبس الأفرول، وإذا كانت معك فلوس، يمكنك أن تتركها معي.

ضحكت وقلت له:

– أنا على فيض الكريم.

رد عليَّ في غير اعتناء:

– كلنا على فيضه ورحمته.

وكنت قد أخبرته بأنني طالب في الجامعة، ربما يكلفني بعمل يليق بما أنا فيه، فوجدته يقول لي:

– الشغل هنا عاوز جسم متين.

نظرت حولي حيث المنهمكون في أعمالهم الصعبة وعدت إليه وقلت:

– أعرف هذا.

أشـار بيديـه، واحـدة إلى كومة الرمـل والأخرى إلى جـدر الطوب المرصوصة، وقال:

– اخـتر ما شـئت، حسـاب الرمل بالمتر وحسـاب الطـوب بالألف طوبة.

وكانت لدي فكرة عن هذا مما سـمعته من شـباب بلدنا الذين حلوا هنا قبل سنوات، فأومأت له موافقًا، ونادى:

– يا «خليل» استلم.

اخـترت رفع الرمـل إلى الـدور الرابـع، وأقبلت عـلى العمل بصدر رحيب، وبعد العشـاء قبضت أجرتي، وغسلت ساقيَّ وذراعيَّ ووجهي وشعري بخرطوم مياه، ومضيت سعيدًا، وأنا أردد في تبتل:

«سـافر تجـد عوضًا عمـن تفارقه ... وانصـب فإن لذيـذ العيش في النصب»

(2)

حين وصلت قدماي إلى الميدان خطفني «مسجد السيدة زينب» بقبته البسيطة، ومئذنته التي ترنو إلى الفضاء الموشى بالنجوم. سرى صوت طلي بمديح ذي جلال وخشوع، فوجدت نفسي أقترب. صدري منشرح، ولساني يلهج بتسابيح، وفي عيني ترقرق دمع، تشظت له لمبات الشارع، وتبعثرت أجساد البشر.

على الباب كان يتزاحم المتسولون بأسمالهم، بعضهم في هيئة دراويش، يعلقون في أعناقهم عقودًا من الخرز الملون، وبعضهم يرتدي ملابس عادية متسخة. نظرت طويلًا إلى وجوههم الضامرة، وأيديهم الممدودة، وسمعت ألسنتهم تكرر أدعية متشابهة للداخلين والخارجين والعابرين في الشارع. كانوا يتحركون في كل الاتجاهات، فيوصدون الباب بأجسادهم التي تتهارش بلا رحمة. وكان رجلًا طويل القامة يهشهم كذباب، فيبتعدون متناثرين على الرصيف، يلاحقون المارة.

خلعت نعليَّ، ودخلت، وكانت المرة الأولى التي أفعل فيها هذا، رغم مروري ذهابًا وإيابًا من أمام المسجد، الذي يأتيه الناس من كل مكان. ملأت عينيَّ من المساحات الوسيعة التي تصنعها السجاجيد الخضراء المفروشة بين أعمدة غزيرة. توقفت أمام حلقات موزعة في أرجاء المكان. دوائر ومستطيلات من البشر. كانوا مريدين، كل مجموعة منهم تتحلق حول شيخها. وقفت محتارًا أيها أتخير وأجلس. وجدت واحدة

يدور عليها رجل قصير في يده مشنة ويمد إلى الجالسين ما يأكلونه، جريت وجلست في آخر الصف الأيمن، أنتظر نفحتي.

كنت جائعًا ومجهدًا، لكن روحي كانت شبعى من رزق حلال تعبت فيه بحق، ومجاورتي لهؤلاء الصالحين، أو من أعتبرهم هكذا. ابتسموا في وجهي، وأفسحوا لي مكانًا بينهم. كانت حضرتهم قد انتهت فأكلوا وانصرفوا، وأكلت معهم وانصرفت. خرجت معهم دون أن أسأل أحدًا منهم عن شيء. هم أيضا لم يسألوني. واحد فقط استوقفني عند الباب، وقال:

- لا تنقطع عنا.

لكنني انقطعت عنهم فور أن تركني، فعيني ذهبت إلى حجر الرجل الرث العجوز، الذي كان يجلس تحت الجدار بين النور والظلام، يرقب من حوله كثعلب، ويعد النقود التي حصَّلها.

التصقت بالجدار حتى لا يراني، وعرفت أن معه الكثير. تخيلت أنني اقترب منه في حذر، ثم أباغته، وأخطف ما معه، وأذوب في الزحام. وتخيلت أنني أقف هنا مثله ساعات فأكسب ما كسب ويزيد.

وضعت يدي على جيبي فشعرت بالخزي من نفسي، وقلت لها:

«هل استهواك كسب الرزق مما لا يفيد».

واستعدت الساعات التي كنت أصعد فيها درج السلم الأسمنتي حاملًا على كتفي كيس الرمل، وشعرت بغبطة شديدة، وكلما كان جسمي يتوجع من فرط التعب، كنت أزداد سعادة.

وها أنا أنزل على الدرج، بينما ينزل قلبي في قدميَّ، وأتمنى لو انشق الجدار العالي الجديد وابتلعني.

في المرات السابقة كان هبوطي يحدث فرقعات متتابعة، من اصطكاك شبشب الجلد القديم الذي وجدته إلى جانب كومة الأفرولات بالدرجات الأسمنتية التي لم تُكس بعد بالرخام.

هذه المرة ألصقت الشبشب بباطن قدميَّ، ومشيت على حذر كلص يحمل ما سرقه ويمضي، ولملمت الكيس حتى لا يحدث خشخشة حين يحتك بالجدار، وأدرت وجهي إلى الناحية الأخرى، حتى ابتعدت عن مرمى بصره، ثم أطلقت ساقيَّ تقرقعان كيفما شاءتا إلى أن وصلت إلى الطابق الأرضي، وجريت إلى المنطقة المحصورة بين الجدار ولوح الخشب العريض، فخلعت ملابس الشغل ولبست ملابس البطالة، وجريت إلى الشارع، ولم أنظر خلفي، حتى وصلت إلى «ميدان السيدة زينب»، فتنهدت بارتياح.

وحين عدت وجدت «عبد الشكور» يشير إلى الصندوق ويقول:

- خَيَّطنا وغسلنا الجبة والقفطان، وليعد كل شيء كما كان.

ابتسمت في فتور وأنا أسأل نفسي: «ماذا لو رآني أحد من قريتي وأنا أشحذ في الحافلات؟»، وارتعد جسدي، ووجدت نفسي أصرخ في «عبد الشكور»:

- انس هذا الموضوع.

- لكن ..

قاطعته وقد ضممت يدي، وضربت الهواء بقبضتي غاضبًا:

- هذا مستحيل .. مستحيل، ولو على جثتي.

(4)

وقفت أمام القبة النحاسية الهائلة لـ «جامعة القاهرة» حائرًا، وتزاحمت الأسئلة في رأسي، الذي صار أضيق من الزقاق الذي أقطن فيه: هل حقًا سأستطيع أن أكمل طريقي في هذه المدينة التي لا تريد أن ترحمني؟ أم سأجد نفسي ذات يوم على رصيف محطة «الجيزة» أو «رمسيس» أنتظر القطار، الذي سيعيدني إلى بلدي كما جاء بي، ولا شيء في يدي سوى الوهم؟

دخلت من الباب، وملأت عينيَّ من مبنى «كلية الآداب» تاركًا لشمس العصر التي تحط على جدرانه المتراوحة بين الأصفر والبني فرصة للتسلل إلى نفسي. شعرت أن الشمس تقبل هذا المبنى الذي طوى جناحيه العملاقين على عظماء مروا به، ثم تأتي إليَّ لتأسرني.

كيف لي أن أترك هذا المكان الذي أدرك أن حياتي لا قيمة لها بدونه؟ كنت قد تعلقت به قبل أن أراه، وطالما تخيلت الذين قرأت لهم ولم أرهم، وهم يجلسون هنا في المكاتب وقاعات الدرس، ويمشون في الردهات، ويقفون في المنتصف، تمامًا في هذه الدائرة التي توزع الأقدام إلى الطرقات والطوابق والسلالم المؤدية إلى مختلف الأقسام، لينصتوا إلى تلاميذهم الذين لا يكفون عن طرح الأسئلة، ولا ينفكون حتى ينالوا الإجابات التي تملأ الرءوس. وكيف لي أن أستغني عن المكتبة العملاقة العامرة بنفائس العلوم والآداب؟

لا .. لا، هذا غير ممكن، ولا يجب أن يرد على خاطري. أجوع هنا وأتشرد. يضمر جسمي ويصير قشة غارقة في تراب الشوارع، ولا أعود خالي الوفاض، منكسرًا، ميتًا، فما قيمة حياتي إن مات هدفي؟

أفضل أن أموت هنا، وأدفن تحت أي جدار، ولا أعطي هذا المكان ظهري وأنا حي أرزق، حتى لو كان الرزق شحيحًا، كسرة يابسة وجرعة ماء.

دخلت إلى المبنى، وقبل أن أصعد السلم العريض، لفت انتباهي طالب يقف أمام لوحة الإعلانات، يقرأ ووجهه معلق في الفراغ، ويضرب كفًّا بكف، ويمصمص شفتيه، وتكاد عيناه تدمعان.

اقتربت لأعرف، وعرفت.

كان نعي الأستاذ الذي حدثنا عن فلسفة التحايل على الرزق، وإشارة إلى أن العزاء سيكون الليلة في مسجد «الحامدية الشاذلية» بـ «حي المهندسين».

أما أنا فدمعت طويلًا. انهمر على خدي ماء حارٌّ بقدر حزني ولوعتي. كنت قد تعلقت فعلًا بهذا الأستاذ، منذ أن حدثني عما أسمعه وأشاهده وأكابده باعتباره الفلسفة، ولا شيء غيرها، فهي في رأسه وعلى لسانه كانت تمشي أمامي في الأزقة، وتسكن البيوت الخفيضة، الجحور التي تأوي أمثالي، وتريد أن تنهار، كما أنها تجلس على المقاهي، وتلتهم الأطعمة الرخيصة، وتعبر الجسور حذرة، وتصرخ حتى يسمع الناس أنينها.

حين شرح لنا «فلسفة التحايل على الرزق» هتفت من أعماقي في صمت: هو .. هي. وكنت أقصد هو الأستاذ، وهي المسألة التي يجب أن تشغلني في قابل الأيام.

رحل هو، وبقيت هي، ولا استغناء عنها.

في المساء ارتديت أكثر ملابسي قتامة، وذهبت إلى العزاء، قلبي مفطور، وتحت المقلتين دمع حبيس، وقدماي تقطعان الخطوات على مهل، كأني أنا الذي أذهب إلى كفني.

كنت حزينًا كما ينبغي للحزن أن يكون، ولم يعرف كل الذين مددت إليهم يدي، التي كانت الرمال لا تزال عالقة تحت أظافرها، لماذا أنا متأثر هذه الدرجة؟ ولماذا لا تريد يدي أن تغادر أيديهم وأنا أمشي في مواجهتهم مكسورًا؟

نعم لم أقل لأي منهم شيئًا، مات لساني في حلقي، لكنني حجزت آلاف الكلمات خلف غربتي ولوعتي، وآمالي الدفينة.

كنت كلما جلست أمامه في قاعة الدرس، وأنصت إليه وهو يتكلم أجد لدي رغبة عارمة في أن أجري إليه، وأقبل جبينه ويديه، فقد كان يغرف من بئر الحياة العميقة، ليصنع نهر فلسفته هو، وكنت أسبح فيه، وتغمرني المياه تمامًا. وطالما شردت وهو يشرح لأجلب إلى قاعات الدرس، أمثلة من هناك في الصعيد الجواني، وأخرى من قاع المدينة، لأنثرها هنا على رءوس زملاء، يعتقد بعضهم أن الفلسفة لا تكون إلا كلامًا معقدًا أو مجردًا مستغلقًا على الأفهام. وحين يرد على خاطري الذين أعاني منهم في القرية، أضحك وأقول:

– ليأت هؤلاء الجهلاء إلى هنا، ليروا كيف أنني انحزت إلى من يمشي في الشوارع وعلى الجسور.

وهذا ما أقوله هناك لكنهم، لضحالة ما في رءوسهم، لا يفهمون، ويتوهمون أنني أكلمهم بحروف من عالم آخر.

هذا الأستاذ منحني فرصة كي أثبت لهم أن الفلسفة نافعة للناس في الحقول والمصانع والمشاغل والورش والأسواق وعلى المقاهي وفي المكاتب والدواوين. هي نافعة بالطبع حتى في أشد حالاتها تجريدًا وعمقًا، لكنهم لم يفهموا هذا، ولن يفهموا، لأنهم غير منشغلين بما أقول، إنما بي أنا. يريدون أن يقولوا لي دون أن ينطقوا بهذا صراحة:

– أنت لا شيء.

وقد يلونون الكراهية فيقولون:

– ما تدرسه ليس له جدوى.

لكنني لا أفرق بين نفسي وما أدرس. أنا به موجود، وإن ذهبت عني ذهبت.

كنت أتمنى أحيانًا لو جاء صديقي المهندس إلى «القاهرة» وأخذته من يده، ليسمع حديث الأستاذ الذي رحل، ويرى أن ما أنا فيه سيمكث في الأرض، لكن القدر لم يمهله ليراه هو، ولم يمنحني أنا هذه الفرصة التي كنت أتمناها.

جلست فوق آخر مقعد في الركن منكمشًا كعصفور في العراء يواجه نهارًا باردًا عاصفًا. وتهت في نفسي فترة طالت، ثم رفعت رأسي، وجلت

ببصري في وجوه الجالسين والداخلين والخارجين، فإذا بعضهم من علية القوم.

فرحت لأن أستاذ فلسفة رحل؛ يأتي كل هؤلاء ليؤدوا واجب العزاء في رحيله، وقلت ربما لأنه جعل التفلسف بسيطًا كأرقام الحساب الأولية، والحروف الأبجدية، وتجرع الماء البارد العذب في لفح الهجير، ومد الأكف إلى المدافئ في صقيع الشتاء.

ها أنا بوسعي الذي أريد أن أسير على دربه أن آخذ عيون كل هؤلاء من رءوسهم لتحط عليَّ، وآخذ أفهامهم لتتبعني.

وانفرجت شفتاي بابتسامة عذبة خطفتها من بئر أحزاني العميقة. فجأة فسد كل شيء، فقد سمعت رجلًا، يجلس بجواري ليقول لصاحبه:

– لولا أن أخاه مسئول كبير في البلد ما رأيت كثيرًا من هؤلاء المعزين هنا.

ورد عليه الآخر:

– وهل نسيت من تكون زوجته، ومن هم أهلها؟

خرجت من قاعة العزاء كاسف البال، ألمي ألمان، واحد لأني فقدت أعز أساتذتي، والثاني لأن هؤلاء الذين رأيتهم هنا لم يأتوا احترامًا للفلسفة، إنما تقربًا من أصحاب المناصب.

عبرت نصف شارع «جزيرة العرب»، ووقفت في المساحة الخضراء التي تفصل بين نهري الشارع، الرائح والغادي، ونظرت نحو مدخل القاعة، حيث الرجال الكبار الذين يقفون في صف كأنه بنيان مرصوص، يمدون أيديهم إلى أيدي الذين يتقاطرون على العزاء، وينصتون إلى شفاه

تقول بصوت خفيض: «البقاء لله» .. «ربنا يجعلها آخر الأحزان» .. «البركة فيكم».

تركت عيناي الداخلين، وتابعت الخارجين. بعضهم كان يمضي صامتًا إلى سيارته، وبعضهم كان يقف ليدس يده في جيبه، ويعطي شحاذًا يقف في ظلام الشجر والنخيل القصير، ثم ينقض على من يقصده سريعًا، فأراه حين يمد يده في النور.

لم يكن هذا الشحاذ رث الثياب، ولا معطوب الجسم، بل كان نظيفًا سليمًا. وأخذت خطوات جانبية حتى أرى وجهه وهو يتلقى الصدقة، فاستطعت أن أراه في الذهاب والإياب.

حين يكون في طريقه إلى من سيطلب منه يكتسي وجهه بمسكنة عجيبة، تنكسر عيناه، ويشحب وجهه، وتنقبض ملامحه، وتتمتم شفتاه بدعاء لا أسمعه، وتتباطأ ساقاه، لكنه حين يحصل عليها ويعطي ظهره تتبدل أحواله. لا تتبدل بل تعود إلى أصلها.

دار في رأسي ما شغلني به، ورحت أمشي على مهل في مستطيل لا يزيد طوله على عشرة أمتار، دون أن أبعد عيني عنه، وأنا في مواجهته، فإن أعطيته ظهري أدرت عنقي حتى أراه.

لم أبرح المساحة التي رسمتها خطواتي الوئيدة حتى خرج آخر المعزين، ومعه انصرف الشحاذ، واضعًا يده على جيبه. انعطف يسارًا فغمره الظلام، ثم بان في نور شحيح قبل أن يصل إلى شارع «جامعة الدول العربية».

أطلقت ساقيَّ للطريق حتى لحقت به، كنت أجرى على جزعي من خواء جيبي والجوع الذي أخذ ينشب أظافره في بطني. أمسكت كتفه فتوقف فاتحًا عينيه على اتساعهما، وداست يده أكثر على جيبه، وقال:

- فيه حاجة يا أستاذ؟

ابتسمت في مكر، وحملقت فيه طويلًا، وأجبته:

- فيه حاجات.

- حاجات؟!

- أنا أراقبك من ساعات وأنت تتسول.

- ما هذا الكلام الفارغ؟!

وضعت يدي فوق يده الموضوعة على جيبه، ودست على كتفه باليد الأخرى، وقلت:

- ألا تعرف أن القانون يُجرِّم التسول؟

صمت برهة ثم نظر إليَّ بإمعان وقال:

- ماذا تريد؟

- لا تأتِ إلى هذا المكان مرة أخرى.

نفخ، ونزع كتفه مني، وحاول إبعاد يدي التي تقبض على كتفه، وقال:

- ما صفتك حتى تسألني وتحاسبني؟

استدعيت كل قدرتي على الجديَّة وأجبته:

- أمين شرطة.

امتلأت عيناه بالفزع، لكن لم يلبث أن تماسك وقال:

- سنوات وأنا هنا، ولم أر شرطيًّا ولا يحزنون.

تنحنحت واستدعيت بقايا الجدية المُخزَّنة في نفسي لهذه الليلة وقلت له:

- جاءتنا شكاوى من البهوات الذين تضايقهم.

بدأ الشحاذ يقتنع بما أقول، فكثير من الخارجين من قاعة العزاء كان يبدون تبرمهم منه، ويمشون بعيدًا عنه، وبعضهم كان يهشه كأنه بعوضة مثل تلك التي تحوم فوق العشب الأخضر في منتصف الشارع، وتدور حول هالات النور الذابلة التي تصنعها لمبات الشارع.

قذفني بسؤال لم أتوقعه:

- من الذي اشتكى؟

ضحكت وأجبته مستهزئًا به:

- تتحدث وكأنك تعرف أسماءهم جميعًا.

- فعلًا، أعرف كل الكبار الذين يأتون لأداء واجب العزاء.

ضحكت وقلت:

- كم «حسونة» في هذه المدينة؟

لم يفهم ما أقصده، لكن الطمأنينة كانت قد أخذت تزحف إلى وجهه بعد أن كانت قد فارقته، وخفت أن يتجرأ عليَّ، فباغته:

- طُلب مني أن أقبض عليك، ولم أشأ أن أفعل ذلك أثناء العزاء حتى لا أثير مشاكل أمام ناس محترمين، والآن عليك أن تأتي معي إلى قسم الشرطة.

عاد الذعر إلى ملامحه، ومد يده في جيبه بينما عيناه ذاهبتان لتحدقا في عينيَّ، وقال:

- خذ ما تشاء واتركني إلى حال سبيلي.

أدركت أن زمام الأمر قد عاد إلى يدي، فضغطت عليه:

- أترشيني؟

ارتعشت يداه وشفتاه، وقال بحروف متماوجة:

- لا .. لا، أبدًا، والله .. والله، أنا لا أقصد .. أرجوك افهمني.

هززت رأسي في كبرياء، وشمخت بأنفي، وقلت له:

- فهمتك، وعليك أن تفهم أنت أنه غير مسموح لك بالذهاب إلى هذا المكان مرة أخرى.

تمتم بكلمات لم أفهمها، وضغطت عليه بعينين حمراوين:

- هل سمعت ما قلته؟

هز رأسه وقال:

- سمعت.

فأشرت إلى نهر الشارع العريض، وقلت له:

- اذهب ولا ترني وجهك، سآتي كل ليلة إلى مسجد «الحامدية الشاذلية» فإن وجدتك سآخذك إلى الحبس، ولن أرأف بحالك.

أومأ موافقًا، ثم غاب في الليل والزحام.

بعد ساعة واحدة كنت قد أعطيت «عبد الشكور» كل ما أخذته من الشحاذ، وأنا أقول له في ثقة متناهية:

– ما لك عندي.

(5)

وجدتني أعود إلى منتصف الطريق، ليست البداية المفعمة بالأمل، وليست اللحظة الآنية التي توهمت فيها أنني قد برئت من كل الأمراض التي أصابني بها الرجل العجوز الذي يتأرجح على أزيز «كنبة» بين الحياة والموت، ولا يمتلك شيئًا سوى الذكريات الغاربة.

ليس للجائع أن يختار، لهذا عدت في الليلة التالية إلى مسجد «الحامدية الشاذلية» لكن بمهمة جديدة، إنها المهمة التي يقوم بها «حسونة» هناك أمام مسجد «عمر مكرم».

عدت حتى أبقى هنا إلى جانب أحلامي.

لكنني في الليلة الأولى لم أجرؤ على مد يدي إلى أحد، وبقيت أرنو إلى الناس من بعيد، وأنا مصلوب بين الظل والنور، أهش البعوض الجائع مثلي عن وجهي وكفيَّ، وأصابعي مشدودة إلى بطني تواسيها وتقويها، وعيون الخارجين من قاعة العزاء لا ترى مثلي.

كانوا يهرولون نحو سياراتهم الفارهة، وينفثون في وجهي دخان صنوف شتى من السجائر والسيجار، ويغيبون في الشارع يمنة ويسرة، وأنا أتابعهم حتى يغيبوا، ثم أعود لأرنو إلى الواقفين من جديد، دون أن أتقدم خطوة نحو رزقي.

شعرت في هذه الليلة بما يشعر به طائر جائع حبيس، يرى الحَب أمامه أكوامًا لكنه عاجز عن الذهاب إليه.

كنت حبيس وجعي وخجلي وانسحاقي، أقف على حافة جرف هار وأنظر إلى هاوية أنا لا محالة ساقط فيها، لكن تسكنني أوهام بأن بوسعي أن أنجو من مصيري المحتوم.

(6)

قبيل انتصاف أول ليلة قضيتها أمام مسجد «الحامدية الشاذلية» عدت إلى «تل العقارب» أجر ساقين متعبتين. في محطة «أبو الريش» وقفت الحافلة في اتجاه فوهة النفق المظلم حيث رأيت «سعد سُلطة» ينزف بعض طغيانه، وهو يشهق من توحش الرغبة.

أعطيت النفق ظهري وأنا لا أعرف كيف أصرف هذا السر الذي جثم على نفسي، وأتساءل عما إذا كان سيصدقني كل من يسمعون هذا الخبر الفاحش أم لا؟

وبينما أنا غارق في سؤالي ولا أرى أمامي إلا بصيصًا يسمح لي بأن أسلك طريقي في أمان اصطدم كتفي بلحم قاس. كان جسم «سعد». رفعت رأسي فوجدته أمامي يبتسم. كانت هي المرة الأولى التي أعرف فيها أنه قادر على مغادرة التجهم. لم تكن ابتسامة صفراء داكنة مثل تلك المرسومة دومًا في محياه، لكنها كانت كتلك التي يفعلها الطيبون.

تيقنت مما أرى حين بادرني قائلًا:

- والله العظيم أنا رجل طيب، لكن الناس لا يفهمونني.

ساورتني شكوك فيما أسمع، لكنها تبددت حين واصل:

- الأخ في الرضاعة أخ .. وأنت فيك البركة يا أستاذ.

وشدني من يدي، وهو يقسم بصوت سمعه كل العابرين والجالسين على المقاهي والمطاعم:

- والله لازم نأكل لقمة مع بعض.

ورغم جوعي الشديد تمنعت، وسحبت يدي من قبضته، لكنه أمسك كتفي، وقال من أعماقه:

- ليكن عيشًا وملحًا بيننا.

تراخت إرادتي أمام إصراره، وإلحاح عصارة بطني على أن أعطيها شيئًا تعاركه بدلًا من حربها الضروس ضد جدار معدتي.

وكانت رائحة الطعام المنبعثة من حاتي «أم هاشم» ومسمط «حبايب السيدة» تختلط في طريقها إلى أنفي، فتحركت قدماي معه قليلًا، لكن ما رأيته في النفق أتى إلى رأسي فجأة، وجعلني أتقزز، إلا أنه لم يدعني أتقيأ داخلي، أو أتردد، إنما حسم كل شيء حين نادى من الطرف الآخر على نادل المسمط:

- طلبي لحمة رأس، وطاجني عكاوي، وشربة كوارع، وفتة وممبارًا.

وسرت معه أتلمظ، وأنا أسمع صفير بطني. جلس «سعد» على طاولة من الرخام الذي تشرب الدهن حتى اكتفى، فجلست قباله، وتطلعت إلى أطباق يتصاعد منها البخار، محمولة في أصابع النادل، الذي يدور بين الطاولات كنحلة.

داست كرامتي على جوعي، فقلت له في جدية صارمة:

- جئت معك، وسنأكل معًا، لكن على شرط.

ابتسم بإفراط وقال:

- اشرط على كيفك.

- أرد لك العزومة، وفي أقرب وقت.

هز رأسه ضاحكًا ورد وهو ينظر في عينيَّ:

- موافق طبعًا.

حين جاء الطعام أقبلت عليه كأنه آخر زادي، وسمعت بطني تزغرد حين تدفقت الشربة الساخنة الدسمة إليها، وحضر جوعي وفتوتي، فهجمت على ما أمامي من أطباق بشهية مفتوحة، وأنا أتجنب النظر إلى وجه «سعد» حتى لا أتذكر ما جرى في النفق المظلم وأتقيأ.

وتركني ملهيًا في الطعام، وراح يداعب النادل، الذي كان يميل عليه، ويهمس في أذنه بما لا أسمعه ولا أريد، فيقهقه وتتناثر حبات الأرز ونسائر اللحم المطحون في فمه على أطباقه. وكنت ألمح هذا بطرف عيني، وأضحك أيضًا، لكن بداخلي، وأدعو لـ «سميرة» التي كذبت حتى تنقذني، فأنقذتني بالفعل، من القتل مرة، ومن الجوع مرة.

نظر إليَّ وقال:

- أرجوك سامحني إن كنت قد أخطأت في حقك.

وكأنه أعطاني بهذا إذنًا أن أزيد في الطعام، فرفعت يدي إلى النادل، وطلبت صحنًا آخر من الفتة الدسمة، وأخذت أزدرد كل ما أجده أمامي حتى شعرت أن الطعام قد وصل إلى فتحة المريء العلوية، ولم يعد بمقدوري أن أضيف لقمة واحدة، ولا رشفة، خوفًا من أن ينفتق جرحي الجديد، الذي صنعه أحد أتباع هذا الذي يجلس أمامي، ويحدثني عن الأخوة والصداقة من أجل أن

يخطف مني فتاتي، وبعدها قد يركلني خارج هذا الحي البائس، أو يحرض من يلقي بي ليلًا على قضبان المترو، فيظل أهلي يبحثون بلا جدوى عن أشلائي.

قمت لغسل يديَّ، ولمحت مقتًا يسكن عيني فتاة جالسة إلى طاولة منزوية في الركن، كانت تخبئ خلف أسنانها بصقة، وحين مررت من جانبها، فعلتها على الأرض غير عابئة بالناس، وزفرت وقالت بصوت وصل إلى سمعي:

- ربنا يأخذ الأراذل.

التفت إليها وعلى وجهي حيرة، فسألتني:

- شكلك ابن ناس طيبين، فما الذي رماك على هذا المجرم؟

ابتسمت وأجبتها:

- رماني الهوى.

وخرجت فوجدت «سعد» يقف أمام الطاولة، وقد مد يده في جيبه وأخرج عشرة جنيهات فقط، ومدها مبرومة إلى النادل، وقال:

- ما معي، والحساب يجمع.

رد وعلى وجهه مسكنة:

- كلك فلوس يا زعيم.

وأردت أنا أعبر الموقف الذي لا أفهمه فقلت:

- ما عند الرجال لا يضيع.

وأمسك يدي، وشدني، فدفعت قدميَّ إلى الأمام حتى أحاذيه، وسرت إلى جواره، وأنا منقسم على نفسي. فرؤية الناس لي بصحبته ستجعلهم يهابونني، لكنهم بالقطع سيمقتونني، ويلعنونني صامتين. وقد يتجرأ بعضهم وينطق خفيضًا مثلما فعلت الفتاة التي عبرتها في المسمط، والتي فوجئت بـ «سعد» يسألني بشأنها:

- ماذا قالت لك هذه المجنونة؟

صمت برهة وأجبته:

- لم تقل شيئًا.

- لكنني رأيت شفتيها تتحركان وأنت تنظر إليها.

- كلام فارغ، لا يستحق التذكر.

- فارغ أو ملآن، أريد أن أعرفه.

- كانت تغازلني.

- بل كانت تسبك.

- كيف عرفت؟

- ملامحها، وبصقتها التي وصلت إلى ركبتك.

- يبدو أنها غير متزنة.

- لا، بل تعرف اليوم الذي لا تطلع له شمس.

بدا لي «سعد» ذكيًّا بدرجة أعلى مما تصورت، وأنا الذي ظننت أن عقله قد مات، أو على الأقل في إجازة طويلة.

التفت إلى الخلف وبصق بقوة، وراح يلعنها، ثم قال:

- «عيون العواهر جواهر».

وحين جلسنا متقابلين بالمقهى لاحظت أن وجهه قد تغضن بكراهية وغضب، وبدا شاردًا كأن أحدًا سرق روحه. عاد إلي، وزفر في وجع وقال:

- عكرت مزاجي، ولولا أن يقال إنني ضربت بنتًا لكنت قد علمتها الأدب.

ضحكت داخلي وقلت لنفسي دون أن أنطق: «ألديك أدب أيها السفيه لتعلمه لأحد»، لكن ما وصله مني هو يدي التي طوحتها في الهواء، وصوتي الذي قال:

- لا تعكر صفوك بهذه المخبولة.

وعندها أغمض عينيه، وأصدر تنهيدة اهتز لها سطح الشاي الأحمر، الذي بدا في يده الخشنة وكأنه ماء جهنم، وقال:

- رمت عليَّ تهمة بشعة، وظلمتني، وحاولت أن تسيء إلى سمعتي.

ضحكت داخلي من جديد عن هذا الذي يحدثني عن السمعة وكأنه أحد أساتذتي في الجامعة أو خطيب مسجد «المواردي» الذي يملأ عيوننا في جلستنا تلك.

ولم أجد ما أقوله له سوى:

- ربك مطلع على كل شيء.

ارتاحت ملامحه قليلًا، حين ظن أنه قد خدعني، وأنني صدقته، ونظر إليَّ نظرة قصيرة لكنها عميقة، وقال:

- رغم كل ما تراه وما تسمعه عني، فإن لي قلبًا طيبًا، وأبيض من اللبن الحليب، لا يعرفه إلا من يقترب مني.

لم أرد عليه، فأرسل عينيه إلى نهر الشارع وعاد:

- عاوزك تطمئن «سميرة» من ناحيتي.

دق قلبي بعنف، وراودتني نفسي أن أسكب بدلًا من الشاي ماء جهنم فوق رأسه، أو على شفتيه اللتين تبللها النجاسة وتدسان اسم حبيبتي، وليكن ما يكون، لكني تماسكت وجاريته في الكلام:

- عقل «سميرة» أكبر من سنها، وتميز الخبيث من الطيب.

لم يرق له ما قلته، لكنه كان على ما يبدو قد قرر أن يصبر عليَّ أطول من استطاعته، وربما كان يتمتم داخله: «إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي».

كتم ضيقه وقال لي:

- ستدوم صداقتنا وتصبح نسيبي.

أخرجت لساني داخلي، وبصقت داخلي، وتوجعت أيضًا بين ضلوعي، وقلت له:

- ربك يُديم المحبة.

لكنه لم يكتف بمثل هذه الردود التي لا تعده بشيء، بل مد يده وقال:

- نقرأ الفاتحة.

- علامَ؟

- تساعدني كي أتزوج «سميرة».

سحبت يديَّ من فوق الطاولة ورميتها إلى جانبي، وقلت له:

- لها أب وأم، وإخوة أشقاء، وأخ من أبيها، وتترك كل هؤلاء وتطلبها من أخيها في الرضاعة.

قهقه وضرب جبهته بكفه ورد عليَّ:

- كل هؤلاء لا تسمع «سميرة» كلامهم.

نظرت إليه باستغراب، وقلت:

- حتى أبوها؟

- أبوها رجل مراوغ، يلاعبني ويلوعني، وهي تسوق عليه الدلال فيمشي وراءها.

وسكت برهة وواصل:

- سماها على اسم امرأة عشقها زمان، ولم ينسها إلى الآن، وهو ضعيف أمام بنته ضعفه أمام عشيقته.

غاظني ما قاله، لأني أدركت أنه يعرف عن «سميرة» أشياء لم أكن أتمنى أن تصل إليه، وساورتني شكوك في الطريقة التي عرف بها، وتذكرت ملاحقته لها على الكورنيش فاضطرم الأسى بين جوانحي. لكنني فكرت في أن يكون قد عرف هذا من جلسة إلى جانب «عبد الشكور»، في المكان الذي أجلس فيه أنا، فوق الكنبة التي لا تكف عن الاهتزاز والأزيز، وسمع إلى ثرثرته التي لا تنتهي.

ما فكرت فيه جعلني أستريح قليلًا، وحين رجعت إلى البيت عرفت ما لم يرد على خاطري قط، وضحكت من أعماقي على صروف الدنيا وتدابيرها.

عرفت أن «سعد سُلطة» من صناعة «عبد الشكور» .. نعم هذا ما يجري، ولم أكن أظنه. الفتى الشقي الذي يبذر الشر في الأزقة وفوق الهامات المطأطئة لتلك البيوت المتداعية، مر يومًا من تحت إبط هذا العجوز الماكر، وسحره كلامه الناعم، وانزلقت قدماه إلى المسار الذي يسلكه الآن، وهو يتوهم أنه لا يفعل سوى ما يفعله الطير البريء، يغدو خماصًا، ويعود بطانًا، كحالي الآن.

الفصل السادس

(1)

تجرأت أخيرًا. تساقطت بقية حيائي تحت عجلات السيارات الفارهة والأحذية اللامعة، ومددت يدي إلى الخارجين من مسجد «الحامدية الشاذلية»، وما عادت به دسسته في جيبي، وأصبح لدي ما جعل بوسعي أن أُغيِّر ما فوق جلدي. اشتريت قميصًا وبنطالًا وجاكيت جديدًا. كنت أريد أن أبدو أمام «سميرة» كما تحب أن تراني.

تجنبت الجلوس إلى «عبد الشكور» حتى لا يكتشف أمري، ويخترع حيلة أخرى، ليسلب مني رزقي. زعمت له كثيرًا أنني مشغول، وأن بعض محاضراتي قد صارت ليلًا. كان يسمعني ويكتم شكوكه داخل محجريه الضيقين، ونفسه الماكرة.

حين رآني بثوب جديد لم يدعني أصعد إلى غرفتي، ناداني بصوت قاطع:

- تعال يا هرَّاب.

شعرت بوخزة حادة في صدري، واستعدت قدرتي على التحايل، وذهبت إليه بعينين ثابتتين، فنظر فيهما طويلًا، ولم يضع وقتًا، إذ سألني:

- هل وصلتك فلوس من أهلك؟

كان يشير إلى ما دفعته له قبل يومين، وربما إلى ما رآه من آثار نعمة قد ظهرت عليَّ.

وضعت يدي على ملابسي، وهززت رأسي:

- نعم.

عاد إلى اقتحامي:

- وهل بمقدورهم أن يفعلوا هذا باستمرار.

أجبته مداريًا تبرمي:

- الرزق بالله.

أسكته مكره، وفتح عينه اليمنى ضيقًا، ونادى على «سميرة»، فجاءت على استحياء. وفي خفاء أرسلت إليَّ من عينيها ما لم تقله، فابتسمت لها، ووصله ما فعلت أنا، فقال:

- منعتها من بيع الورد.

لم أرد، وضايقني ضياع فرص اللقاء في الهواء الطلق، وراح هو يبرر ما أقدم عليه:

- كبرت، والعيون لا تُرفع عنها.

أمَّنت على كلامه:

- فعلًا، ربنا يحرسها.

فاجأني حين اقترب خطوات أخرى من هدفه:

- تركت المدرسة لكنها تعرف القراءة والكتابة، وتنتظر من يعلمها أكثر.. ذكية وتستوعب في سرعة.

نظرت إليها من طرف خفي، فوجدت وجنتيها تزدادان احمرارًا، وسرت في شراييني حرارة الامتلاء بجمالها الأخاذ، وتمنيت لو قطعت المسافة الفاصلة بيننا وأخذتها بين ذراعيَّ، وقبَّلت كل وجهها.

وقرأ هو على صفحة وجهي ما يدور بداخلي، فقال لها:

- اعملي شاي.

وانسحبت على مهل، وجلبابها الضيق يلتصق بجسدها المشوق الريان، ويرسم في بقعة الضوء المفروشة على الأرض مفاتنها أمام عينيَّ، خصرها النحيل وكتفيها المستديرين وعجيزتها التي ترجرج في لطف وانسياب، وشعرها الذي ينسدل على كل هذا.

«أمووووووووووووووت» قلت هذا في نفسي، وشعرت بشراييني تتسع، ودمائي تسخن، وأدركت أن ما بيني وبين «سميرة» لا يطلب امتلاء الروح فحسب، بل إرواء الجسد. فقلت بصوت هامس، وأنا أنسى الرجل الجالس إلى جواري:

- أعشقك روحًا وجسدًا.

وكانت أذناه مملوءتين بصوت بصاقه فلم يسمعني، لكنني أنا الذي كنت أسمع صوت لذتي المكتومة، وأرى الصورة الرائعة التي رسمتها مخيلتي على جدار مواجه يرشف النور ليمحوَ ظلمته. إنها صورة «سميرة» وقد تخلت عما يسترها، وعادت كما بدأت، وقالت: هئت لك. رد عليها عجزي وغلياني الساكن، وسألت «عبد الشكور» من دون أن أحسب شيئًا:

- هل ستزوجها للمجرم الذي يطلبها؟

شرخ الهواء بكفه، وقال في غضب:

- لن يلمس ذيل ثوبها.

ثم نظر عميقًا في الطرقة نصف المظلمة وهمس في أذني:

- إياك أن تظن أنني أخاف هذا الجرو.

جاريته مستعينًا ببعض مكره:

- أنت لا تخاف إلا من ربنا.

طمأنه كلامي فانطلق في الكلام:

- هذا الولد كان من صبياني، أنا الذي علمته ما هو فيه .. ليس بالضبط هكذا، بدايته كانت مختلفة وقت أن كنت أتابعه، ثم تمرد عليَّ، ونسي نفسه بمرور الأيام، لكن العين لا تعلو على الحاجب.

وتذكر أنه كان قد أبدى لي من قبل مخاوفه منه فقال:

- الآن لم يعد وحيدًا، كَوَّن عصابته، واستهتر بالجميع، ولا يحجزني عنه سوى عجزي عن النهوض، وخوفي على أولادي.

مد يده إلى الفوطة صغيرة الحجم الملقاة بجانبه دومًا وبصق فيها ورماها من دون عناية، فسقطت على الأرض، وهرع إليها على الفور نمل كان يدب بحثًا عن أي شيء يطعمه. نظر طويلًا في السقف المملوء بالنتوءات والجروح والحفر، وعاد ليجدني أنتظر ما سيجود به، فقال:

- التقطته من بين الصبيان وعلمته كيف يخطف، لكنه عض اليد التي امتدت إليه. ولد عاصي، ابن حرام.

تطلعت إليه مندهشًا، وسألته في حدة:

- أنت من صنعت هذا المجرم؟

رمقني بطرف عين تسللت إليها حمرة قانية، وقال:

- ما بدأ به غير ما هو فيه الآن.

- أشعلت النار ولم تطفئها.

-كان غرضي أن يحمي الناس مقابل أن يعطوه ما يعيش منه، لكنه صار هو من يعتدي عليهم.

- يعيش هو أم تعيش أنت؟

- ماذا تقصد؟

- سرحته ليجمع لك الغلة، كما تفعل لنا جميعًا؟

-لا غلة ولا تبن، أنت فعلًا صعيدي قفل، ولو لم أفتح لك مخك لمت هنا من الجوع، أو عدت إلى بلدك بحسرتك.

لم أشأ أن أذهب في إغضابه إلى حد لا يطيقه، ولم أتجاوز شعوري بالامتنان له في هذه اللحظة، فلولاه ما استقر بي المقام هنا.

نهضت من مكاني، وتقهقرت خطوة، وجهي إليه وظهري إلى جدار الزقاق، لكنه مد أصابعه نحوي، وقال:

- تعال.

وجئت، وتابعت أصابعه وهي تلتوي وتشير إلى المكان الذي كنت أجلس فيه على الكنبة قبل وقوفي، فجلست، وسمعته وهو يقول:

- الشاي يا «سميرة».

وجاءت قبل أن ينهي الحرف الأخير من طلبه، وكأنها كانت تقف وعلى كفيها صينية الشاي لتتنصت علينا.

جاءت كما ذهبت، تمشي على قلبي، وعاد إليَّ اشتهائي الذي كان قد غاب مؤقتًا في زحمة ما تبادلته مع أبيها من كلمات، وكما كان الشاي ساخنًا كنت، وأنا الذي أعرف جموحي وشدة رغبتي. وفي فوراني قلت له، قبل أن تغادرنا:

- زوجني «سميرة».

هي جرت إلى الداخل خجلى، وهو انبسطت ملامحه وسكنها ارتياح، لكنه فاجأني بسؤاله:

- هل من جديد في موضوع «دار الهلال»؟

كنت قد نسيته أو تناسيته، وسؤاله أشعل في نفسي نار الغيظ، وعاد إليَّ عجزي وقلة حيلتي. وفهمت أنه يريد لبنته زوجًا من الأفندية، وليس من الأرزاقية مثل أولاده، وجاء إلى رأسي ما أفعله هناك أمام مسجد «الحامدية الشاذلية»، فشعرت بالأسى والانقباض، وانكمشت داخلي، ولم يكن أمامي سوى رد محايد:

- ربنا يسهل.

شربت الشاي وصعدت إلى غرفتي لأستعيد روح «سميرة» وجسدها، وأنا أرسل ناظري ليشاكس ما يبين على الأسطح المجاورة في خيوط الضوء القادمة من لمبات الشوارع: كراكيب من الخشب والصفيح وقطع صغيرة من حديد صدئ وأوانٍ قديمة متآكلة، وملابس مهترئة،

وأكوام قش وحطب ضئيلة، وهوائيات التلفزيونات الملونة، وحبال الغسيل المشدودة والمرتخية.

تلهيت بما أرى وأنا أنتظر ما أود أن أسمعه حين يرحل الليل، تنهدات حارقة لنساء مغمضات العيون، ورجال ينزفون لهفتهم، وتمنيت هذه المرة لو تسمح لي الفتحات والكسور التي تصيب النوافذ بأن أرى بعض ما يجري، لتستعر نشوتي.

(2)

عدت في الليلة التالية من أمام مسجد «الحامدية الشاذلية» منتشيًا بدفء جيبي، لأجد «عاطف» في انتظاري إلى جوار أبيه. ما إن رآني حتى قام متهللًا، وخطفني بين ذراعيه، وقال في حسم:

– عازمك على سهرة جميلة.

وقلت في نفسي إن محاولاته للصعود قد نجحت، وإنه سيصحبني إلى مسرح أو دار سينما، بعد أن حصل على دعوتين مجانيتين، من ممثل شهير، التقاه، أو مخرج عرض عليه دورًا في مسلسل أو فيلم، لكنني فوجئت به يقول بعد أن خرجنا من الزقاق إلى نهر شارع «بور سعيد»:

– سنأكل عند «بحة»، ونشوف فيلم أو اثنين على قهوة «عنبة»، وبعدها «قعدة مزاج».

وزقزقت بطني، وامتلأت عيناي بالصور الملونة، ودارت رأسي في متاهة باهتة كحوائط الأزقة المنسية، واستعاد جسدي نشاطًا مفرطًا، وأقبلت الدنيا عليَّ، أو هكذا شعرت في هذه اللحظة.

كان الطقس منعشًا، تنفتح له شهية السهر، وكنت في حاجة ماسة إلى كسر رتابة معيشتي القاحلة، وأن أعرف بعض مباهج المدينة، كما عرفت أوجاعها.

في الطريق لم يضع «عاطف» وقتًا، وعبر بلسان أبيه:

– «سميرة» أقرب إخوتي إلى نفسي، حنونة، تخرج اللقمة من فمها وتضعها في فمي ... رغم جمالها ففيها شهامة رجل شجاع. يا بخت الذي ستكون من نصيبه.

فتحت له قلبي:

– أنت فنان وتقدر أن العشق ليس بأيدينا وله سلطان غالب.

هز رأسه في إيجاب:

– أكتوي بناره، ولا أعرف كيف أطفئها، رغم ما ألاقيه من صد وهجران.

– مثلك سيفهمني وسيعذرني.

هز رأسه في إمعان، وقال بصوت مفعم بألحان شجية:

– محظوظة «سميرة» لأن من وقع في غرامها فيلسوف.

أطربني ما قال، لكنني أبديت تواضعًا:

– قل «مشروع فيلسوف» فلا يزال الطريق طويلًا.

وسكت برهة ثم واصلت:

– كما أنني لست وحدي الذي يهواها.

قهقه، وضرب يده في الهواء مستهينًا:

– أتضع نفسك أمام هذا البلطجي؟

– بل هو الذي يضع نفسه أمامي ويمنع عني «سميرة»، لولاه لخطبتها من أبيك.

تنحنح وغرق في نفسه وقتًا قصيرًا لكنه ثقيل، وعاد يقول:

- غرفتك سكنها كثيرون قبلك، لكن أحدًا منهم لم يدخل قلوبنا جميعًا سواك .. حتى «حسونة» الذي يكره نفسه يودك.

كنا قد وصلنا إلى سور مدرسة «السنية» فانعطفنا يسارًا، ودخلنا إلى رحاب «الناصرية». بيوت يسكنها الزمن، بسيطة كأصحابها. رجال يتقاطرون في الشارع المتعرج قليلًا، ونسوة يملن بأجسادهن من النوافذ يتسلين بالعابرين.

كنت قد شردت في كل ما حولي، ونسيت من يسير بجانبي وأنا تائه في زمن بعيد. تنبهت إلى غمزة من «عاطف» في كتفي:

- الحب توهة.

ضحكت وقلت:

- بل ذهبت إلى بعيد الأيام، وتصاريفها التي غيرت معالم هذا المكان العريق.

- أتيت إليه مئات المرات ولا أعرف عنه شيئًا.

عدت إلى ما قرأته في كتاب استعرته من مكتبة الجامعة وقلت:

- في الزمن البعيد أنشأ السلطان الناصر قلاوون ميدانًا في هذا المكان غرست فيه الأشجار وأحاطته البساتين والمتنزهات، وكان النيل يرسو عليه في هدوء ووداعة. وفي المكان الذي نسير فيه كان السلطان يمشي فيه كل سبت راكبًا حصانه في موكب مهيب حين يغضب الصيف ويدوس قيظه على الرءوس، وحوله حرسه بثياب الحرير والكوافي المزركشة. وأقام الناس هنا مبانيَ عظيمة.

أنصت حتى انتهيت، ثم قال في تبتل:

- فعلًا، العلم نور.

- اعتدت أن أقرأ عن الأماكن التي أمر بها، لأعوض جهلي الكبير بـ«القاهرة».

- ولدنا فيها، ونجهل حتى أسماء الشوارع التي نمر بها ليل نهار.

اقتحمتنا جلبة خارجة من المقاهي المتقابلة. أصوات محفورة في رأسي، تضحك، تبكي، تصرخ، تتحدث، تتغزل، تشتم. رجال ونساء. شباب وشُيَّاب. إنهم الذين يحلم «عاطف» بأن يكون يومًا بينهم، ينطق أمامهم تحت ضوء الكاميرات المبهر ودفئها اللامع بضع كلمات.

حملق «عاطف» في الشاشات المبذورة في المقاهي المتلاصقة. نقَّل بصره بينها، وحطه على وجه «أحمد زكي»، وقال:

- لا يعلو عليه، سندخل هنا.

كانت قهوة «عنبة»، وكان فيلم «الرجل الثالث»، وكان مشهده الأخير يُعرض أمامنا، ثم نزلت النهاية فوق وجوه الجالسين التي تسكنها دهشة. صبية جاءوا من شوارع بلا أسماء بحثًا عن مسرة عابرة. في أفواههم بقايا سجائر ولفائف، وأمام أنوفهم سحابات سوداء من دخان ينفلت عفيًّا. بعضهم يقضم خبزًا محشوًّا بطعام زهوم، يتدفق دهنه على أصابعهم الملطخة بآثار الكدح والإهمال الطويل.

تعتق الهواء برائحة البانجو والنيكوتين والقطران، وزاد الضجيج بسعال مدفوع الثمن.

أمام التلفاز وقف النادل، ونظر إلى الناحية اليسرى باحتقار، وإلى اليمنى بقليل من الاحترام، وسأل:

- الفيلم نفسه أم تشاهدون غيره؟

بدا أن الأغلبية لم تكن قد شاهدت الفيلم من أوله، فارتفعت الأصوات طالبة الإعادة. فدفن النادل الشريط في بطن الفيديو، وضغط زرار الريموت، فتوالت أسماء الأبطال معلنة بداية ما كان قد انتهى للتو.

نقلت عينيَّ بين الشاشة وأقدامهم المحشورة في أحذية بالية، وشباشب من جلد رخيص وبلاستيك، ومنها تطل أظافرهم المتسخة، وكعوبهم المشقوقة المملوءة بتراب الشوارع الضيقة والحارات.

لمحت واحدًا منهم كأنني رأيته من قبل، هكذا شُبِّه لي. كانت عيناه منكسرتين، وغارقتين في الأسى، وشفتاه مقددتين، ربما من الظمأ، وربما من ألم الروح.

أمعنت النظر فيه دون أن يشعر بي، فعرفته. كان «صلاح» الذي أخذ «سعد سُلطة» منه فتاته، وقهرها أمام عينيه فقهره أشد منها. وتأكدت من هذا حين ناداه الولد الذي يجلس خلفه:

- اصح يا «صلاح»، الفيلم بدأ.

عاد من شروده، وعانقت عيناه الشاشة الملونة، دون أن يغادره ألمه.

في الجانب الآخر من المقهى كان يجلس شباب ورجال في أوسط العمر، على هيئة أخرى غير تلك التي عليها الصبية. ياقات نظيفة، وأحذية لا تطفئ لمعانها ذرات الغبار التي علقت بها في شوارع «الناصرية»، ووجوه ليست ممروضة.

طافت عيناي بهم، وفجأة ارتج قلبي، وانفجر ألم في بطني، وغامت الرؤية أمامي، وركبني غم شديد واشمئزاز، وصُمَّت أذني عن الصوت

الحلي الآتي من التلفاز، وكبحت جماح نفسي التي صورت لي أن أهجم على الشخص الذي رأيته، وأغرس أصابعي في زوره ولا أتركه سوى جثة هامدة.

كان صبي «سعد سُلطة» الذي طعنني في الحافلة، وسقى أرجل الجالسين على مقاعدها من دمي.

نظرت إليه في غيظ، ولم يكن قد رآني، وعدت لأنظر في وجه «صلاح» المسكون بالحزن.

أصبحت في مكان واحد مع من أراد قتلي، ومن قتله غريمي.

خرج «عاطف» فجأة دون أن ينبئني إلى أين هو ذاهب، وعاد بعد قليل وفي يده علبتان من البلاستيك الرقيق، وقال:

- جبت لك طبق قنبلة.

- قنبلة؟!

- طبق أرز بلبن عليه قطعة بسبوسة وكنافة وقشطة وعسل أبيض وقطع موز ومانجو .. تصبيرة على ما ينتهي الفيلم، وبعدها العشاء الدسم.

وجلس إلى جانبي يأكل في نهم، وأنا أرى في مقلتيه صور أبطال الفيلم. كان شغوفًا بهم إلى درجة أنني أعطيت ظهري للتلفاز، ورحت أتفرج في عينيه، اللتين كانتا تجعلان المشاهد عميقة، تغادر الأثير، وتصير من لحم ودم، وكأن هؤلاء الممثلين الذي يسكبون أصواتهم في آذان الجالسين، قد جاءوا إلى هنا، وتغطي رءوسهم سحابات الدخان الخارج من الأنوف والحلوق.

(3)

لم تكن هي المرة الأولى التي أضبطها تائهة في ملامحي الخشنة، وتعقب قدماها لخطواتي لفت انتباهي غير مرة، لكني كنت مشغولًا بـ «سميرة» ولا أرى غيرها.

اليوم فقط بدأت أرى هذه الجديدة، حين وقفت في مواجهتي تعلو شفتيها ابتسامة عذبة وسألتني:

- لماذا غبت بالأمس؟

ها هي تبين لي أنها تتابعني، وأن غيابي عن المحاضرات قد شغلها، كما يشغلها حضوري. قطعت خطوات واسعة نحوي، ولم يكن أمامي من سبيل سوى أن أجيبها بأي شيء. تنحنحت وأجبتها:

- كنت مجهدًا.

أطلقت بعض قلق في ملامحها، وأخذت جسمي الرفيع في مقلتيها اللتين امتلأتا حنانًا، وقالت:

- سلامتك، ألف سلامة.

ثم هزت رأسها، وانصرفت صامتة على مهل. تابعتها إلى أن غابت في الردهة الطويلة شبه المعتمة، وغمرتها بقعة الضوء المبهر التي ترسلها شمس العصر من النافذة الغربية.

كان اسمها «أسماء»، وأتذكر أنني في أول مرة أسمع أحد زملائنا ينادي عليها، تمتمت في سري: «أسماء أم أفعال؟»، وضحكت دون أن يشعر بي أحد، لكن لم يدر بخلدي يومها أنها ستأتي إليَّ هكذا راضية، وتجذبني في رفق ودهاء إلى بدايات لا أعرف إلى أين ستنتهي؟

وحين اختفت عدت إلى نفسي فوجدت شيئًا جديدًا قد طرأ عليها. وتردد داخلي سؤال: من هذه؟ وماذا تريد مني؟

لكن وجه «سميرة» جاءني وملأ الجدران أمامي. كلما التفت إلى اتجاه أجده، فأغمضت عيني عليه، ومضيت في طريقي قابضًا على ما في قلبي من مسرة.

على كوبري الجامعة رحت أستعيد ما عشته معها من تفاصيل، تقفز إليها وجوه إخوتها وأبيها وأمها، لكنني أطردها لأستعيد وجه حبيبتي، وأغرق في نثار الحكايات العذبة والمبهجة معها.

وجهها كان يملأ صفحة النيل، وواجهات البنايات النظيفة الشاهقة على ضفتيه، وأشرعة المراكب التي تمشي على مهل، وجوانب الحافلات التي تمر محشوة بالبشر، وأسطح السيارات التي تمرق بجانبي لا تدري عن لوعتي شيئًا.

لم يكن «عزازي» في مكانه، وسائقو سيارات راحوا يرسلون عيونهم بحثًا عنه، وهم يتباطئون ويطلقون الأبواق. يستعجلهم القادمون من الخلف بأبواق أخرى، فيضغطون على دواسة البنزين وينطلقون.

وصلت إلى الكورنيش الذي طالما نقرت عليه خطواتها السريعة. لم تكن موجودة، فقد اعتزلت مهنتها الجميلة كما أبلغني أبوها، لكن الورود كانت محمولة في يد طفلة تتراقص ضفيرتاها السمينتان في

وجه الريح الخاطفة، التي تؤرجح فستانها المزركش وهي تجري نحو العشاق. كانوا كعادتهم يمشون الهوينى. يتوقفون ليتناجوا وعيونهم إلى الماء، وظهورهم إلى العابرين، وكانت هي تخرج لهم فجأة، كأن الأرض قد انشقت وألقتها، وتمد لهم يدها اليمنى بورود حمراء.

جلست على المقعد الحجري الطويل الذي كان عنده لقائي الأول بـ «سميرة» وناديت بائعة الجمال الجديدة، فهرولت نحوي. اشتريت وردة حمراء، وأودعتها في بطن كتابي، ونهضت قاطعًا الطريق إلى «تل العقارب».

حين وصلت لم أجد «عبد الشكور» مكانه. كانت هذه هي المرة الأولى، منذ أن جئت إلى هذا البيت، التي أرى فيها الكنبة خالية. وقفت على الباب وقتًا لم يطل، ثم صعدت إلى غرفتي، والشمس تتأهب للسقوط خلف حبال الغسيل.

كانت العتمة راقدة في جنبات الغرفة، وكتبي متناثرة فوق الطاولة المكسورة، لا تظهر عناوينها المكتوبة على الأغلفة جيدًا، وستر الظلام الخفيف اتساخ الوسادة وملاءة السرير وشراشف الغطاء الذي أتدثر به.

ألقيت جسدي فوق السرير، وملأ أذني أزيزه الذي انفجر عاليًا، وراح يخفت تدريجيًا، حتى مات. مات تمامًا حين حطت عيناي على ظل خفيف يقترب في وجه ضوء اللمبات الشحيح. كانت «سميرة».
وقفت على الباب وقالت:

- مساء الخير.

رفرف قلبي، ونضح وجهي بالعرق. لم أرد سلامها، إنما سألتها:

- أين ذهب أبوك؟

- في البيت.

- لم أجده على الكنبة حين دخلت.

- كان في الحمام، سندته حتى هناك، أمي لم تعد قادرة.

وتلفتت حولها في الغرفة وواصلت:

- خشونة الركبة لا علاج لها، وألمها لا يطاق.

وزفرت في ألم:

- المشكلة أن صدره زي مراجيح المولد.

اعتدلت في السرير، وقلت لها:

- أتعب نفسه أيام الشباب، وهذه العقبى.

أومأت موافقة على ما قلت، وبرق وجهها في العتمة التي يتخللها نور ذابل فبدا كأنه كرة من نحاس أحمر، بعد أن ذاب بياضه في الظلام، فوجدت نفسي أقترب مما أريد أن أبلغه، لأقول:

- أتعبه العشق.

توهج وجهها، وسألت:

- وهل العشق يتعب؟

- إن كان من طرف واحد، أو حتى من طرفين لكن حل الفراق وتباعدت الأجساد رغم تعانق الأرواح.

اقتربت من سريري حتى صارت يدها في متناول أصابعي، فمددتها وأخذت راحتيها الطريتين، ودست عليهما في لطف، وقلت لها:

- أحبك يا «سميرة».

ارتعشت راحتاها في يدي كسمكتين صغيرتين تفلتتان من صياد ماهر، لكني قبضت عليهما بشدة، فاستكانتا، وسمعت ما لم تقله: «هئت لك».

وصلتها حرارتي، وامتزج نبضي بنبضها، وتوهجت المشاعر والغرائز. مالت عليَّ وقمت إليها. في منتصف المسافة بين شوقي وشوقها التقى شوقانا في لثمة خفيفة، سرعان ما صارت قبلة طويلة عميقة جائعة. جذبتها إليّ برفق فجاءت طيعة، حضنتها في لهفة، ولانت بين ذراعيَّ.

رأيت باب الغرفة مفتوحًا فوقعت بين نارين. نار أن تموت لهفتها مني إن تركتها وذهبت لإغلاقه، ونار أن يرانا أحد يصعد السطح فجأة، أو يمد عينيه في المساحة المواربة من الباب التي تطل على أسطح الجيران.

حسمت أمري حين استسلمت لي وسترنا ظلام ما بعد الغروب، فزاد التصاقي بها، وزحفت شفتيَّ إلى جيدها الطويل تلثمه في تؤدة حارة، وأنا أستعيد معها كل ما كنت قد سمعته من عرسان بلدنا الجدد، حين كان يحلو لهم أثناء الكدح في الحقول أن يحكوا تفاصيل مطارحة زوجاتهم الغرام، متباهين بما يفعلون، والرجال الكبار ينهرونهم، أو يعلمونهم في رفق.

كنت وقتها طفلًا ينصت إليهم في شغف، حتى أصبحت لدي معرفة نظرية عميقة تكفيني لاستدراج أنثى إلى فخي وهي تتلوى من فرط الشبق.

حين ملأت روعتها عينيَّ، وسرى دفئها في شراييني جذبتها إليَّ أكثر، ودسست أصابعي في صدرها وامتلكته فتراخت ومالت على السرير فملت معها، ولم يعبأ كلانا بأزيزه المتواصل، وأنا أمطرها بالقبلات ويدي تزحف إلى كل جسدها، كي أمنحها النشوة كاملة.

(4)

استوقفني «أبو عوف» وأنا عائد من عند مسجد «الحامدية الشاذلية» أجرُّ ساقيَّ المجهدتين. مد ذراعه إلى آخرها وأنا قادم على بُعد خطوات منه، ثم ترك كفه تعلو وتهبط كأنه يشير إلى سيارة، تبحث عنه ليسهل لها وقوفًا آمنًا.

كانت هي المرة الأولى منذ أن أقمت في «تل العقارب» التي أجده راغبًا في الحديث إليَّ. صافحني بحرارة وقال:

- أصحيح لـ«سعد سُلطة» عشم فيك؟

نظرت إليه مستفهمًا، وقلت:

- عشم إبليس في الجنة.

بدا عليه انزعاج شديد، ثم انفرجت شفتاه ونطق:

- الرجل قال فيك شعرًا، بدا غاية في الانبساط منك.

نظرت طويلًا إلى وجهه المتبلد، وسألته:

- ألا تعرف ما وراء انبساطه؟

ضحك فبانت أسنانه الصفراء من أثر الشاي الثقيل والسجائر الرخيصة، وقال:

- لا يهم، المهم أنه مبسوط منك، وسألني عنك.

أمسكت كتفه وسألته:

- أتعطي وزنًا كبيرًا لواحد كان صبيًّا عند أبيك؟

رفع كفه لسيارة كانت تتباطأ، لكنها عادت لتسرع وفارقتنا. عاد يقول:

- كبر الصغير، والصبي صار معلمًا يخاف منه الكل، بعد أن أصبحت له أنياب وأظافر، وصار بوسعه أن يمنعنا من أن نلتقط أرزاقنا، وهو قادر على أن يحبسنا في بيوتنا.

- لهذه الدرجة؟!

- أكثر مما تتصور.

أرسل ناظريه إلى عرض الشارع وقال:

- أقف هنا بموافقته.

ووضع يده على جيبه، ثم دسها فيه، وقال:

- يقتسم معي نصف رزقي، ولا أملك الرفض، وإلا طردني من هنا.

- وهل أبوك يعرف هذا؟

- طبعًا.

- ويسكت؟!

- هذا ساير على الكل في المنطقة، ونحن نتقبله كأنه قانون.

- لكن في البلد حكومة.

ضحك وضرب جبهته بيده، وقال:

- أنت رجل طيب .. الحكومة تأخذ من «سعد» ثمن سكوتها عن كل ما يفعله بنا.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها أن «سعد» تسانده الشرطة، لكنني هزأت في غيظ:

- رجال شرطة يبلطجون، وبلطجية يحكمون... سيان.

وعدت إلى ما كنا نتحدث فيه:

- ألا تريد أن تعرف لمَ يرضى عني «سعد» هذه الأيام؟

- قل.

- الأمر يتعلق بأختك «سميرة».

احتقن وجهه بدفقة غضب عارم، وابتلعني بعينيه، ووقف شعر لحيته القصير كأنه قنفذ داهمه خطر، وغمغم قائلًا:

- أختي!!

- نعم هي، «سعد» قصدني واسطة إليها. يظنني أخاها في الرضاعة.

ضحك من جديد:

- من قال له هذا؟

- أختك؟

- «سميرة» !

- هي.

- مجنونة.

- بل ذكية.

- أي ذكاء في كذب سيكشفه «سعد» قريبًا، وساعتها سيكون الحساب عسيرًا.

وسكت برهة، تنبه فيها إلى أن شيئًا مهمًّا فاته ولا بد أن يسأل عنه:

- ما الذي جعلها تكذب؟

قلت في نفسي: «كي تحميني إلى حين»، لكنني ضربته على كتفه، وقلت له وأنا أدفع قدميَّ لأبتعد عنه:

- اسأل عم «عبد الشكور».

ومضيت في طريقي وأنا لا أعلم لماذا ألقيت سري تحت قدميْ «أبو عوف»، وفرطت في الكذبة التي كانت تبقيني هنا إلى حين. لكنني شعرت بالارتياح، وكأني ألقيت من على صدري شُمَّ الجبال. وبدت خطواتي أكثر خفة، لكن أثقلت الأسئلة التي لا إجابات لها كاهلي من جديد: هل أردت الانتقام من نفسي؟ أم أريد أن أهدم كل شيء فوق رأسي، الحب والبيت والسكينة المؤقتة؟ ما الذي يدفعني إلى هذا؟ أهو شيء تحرك داخلي يدعوني إلى الابتعاد عن «سميرة» وعن الكوابيس التي داهمتني الليلة الماضية بعد أن بت وسروالي مبلل ببقايا شهوتي؟ أم هي الرغبة في ترك هذا المكان الغارق في البؤس؟

لا أدري ما الذي جرى، لكنني فعلت ما جعلني الآن مستريحًا لسبب خفي لا أقف عليه، استراحة تليق بنفور شاب ريفي وصعيدي من فتاة سلمت له نفسها طيعة، ويحرمه جهله الذي صنعته عادات وأوهام من أن يفهم أنه هو أيضًا سلم لها نفسه، وربما سبقها إلى هذا، لكن، وحسبها

تعود، لابد لذات النهدين والضفائر والتي ينتهي اسمها بتاء مربوطة، أن تكون هي المتهمة، هي السبب، وهي التي ضعفت، ولأنها ضعيفة ويمكنها أن تمنح شفتيها وصدرها وهي راضية، فلا تصلح أن تكون شريكة حياة.

هذه حدود ما تربيت عليه، ولم تغيرني الفلسفة التي درستها وأعشقها، ولا أدري أيضًا لماذا حتى الآن لا تريد أن تغيرني، أو لا أريدها أنا أن أتغير بها؟

في الحقيقة لم تكن قد أعطتني كل شيء حتى اللحظة التي تحدثت فيها مع أخيها «أبو عوف»، لكن حتى هذا كان في نظر مثلي كثيرًا.

بالطبع لم تتبخر عاطفتي حيالها هكذا بغتة، ولم يصبها كل الفتور، إنما تحولت إلى رغبة عارمة في الانتقام منها، لأنني وقعت في هواها، وهو يكاد يخرجني عن الطريق الذي رسمته لنفسي قبل مجيئي إلى القاهرة. جئت لأصير فيلسوفًا وليس عاشقًا. سعيت إلى هنا حتى يستيقظ عقلي ويبلغ مداه، فاستيقظ قلبي وتجاوز حدوده.

ربما كنت متيقنًا من أن «سميرة» ليست لي فأردت أن أستعجل النتيجة النهائية، فوقوع البلاء خير من انتظاره، وربما كنت أنتشل نفسي من الوقوع في فخ ما لا طاقة لي به، وما سأظل طيلة حياتي أهرب من تذكره.

وتساءلت من جديد وأنا محشور في الزقاق، والأحجار الصغيرة والقش والورق المتسخ يدور حول ساقيّ في هوجة ريح خفيفة: هل سأنجو إن أفقدتها بكارتها؟ وكنت أعرف الإجابة وأقول لنفسي: لن

يكون أمامك من سبيل سوى الاقتران بها، وساعتها ستذبح كدجاجة ويلطخ دمك الحيطان المتآكلة.

غريب أمري، فقبل أيام قليلة كان غاية المنى أن أعرف أنها تحبني، لكن يبدو أنني أعددت نفسي على أن أحبها وفقط، متخففًا من كل ما يفرضه الناس على الحب من قيود ومسئولية، ومستعملًا إياها كباعث على البقاء هنا إلى جوار هدفي الذي قطعت كل هذه المسافة في سبيل بلوغه، شيء يخفف عني الغربة والفقر وعناء الاستذكار وصعوبة الطريق، يمنحني أي قدر من البهجة وسط أحزاني الدفينة، وتلك التي تتساقط على رأسي كالحصى المسنون.

«آه يا غايتي النبيلة، كم أدفع في سبيلك كل غال ونفيس، أو كنت أحسبه هكذا قبل أن تجرفني المدينة إلى بحرها الذي لا قرار له ولا شاطئ». قلت هذا لنفسي قبل أن أصل إلى البيت، وتقتحم عيناي كنبة «عبد الشكور» وجسده المحطوط عليها.

حين وصلت كان ظهره إلى الباب، فحاولت التسلل خفية، كي أصعد السلم إلى مقبرتي وأنا حي، لكن فأرًا سمينًا كان يهبط مذعورًا، وخلفه قط أبيض يمط جسده كي يلحق به. أحدثا جلبة وهما يمرقان من بين ساقيّ. حاولت تفاديهما، فاصطدمت قدماي بصفيحة قمامة، فأحدثت قرقعة، وتأوهت متألمًا، وكان ذلك كافيًا كي ينتبه «عبد الشكور» إليّ.

- ما الذي جرى يا «رفعت»؟

كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديني فيها ولا يسبق اسمي بلقب «أستاذ»، وكانت المرة الأولى التي أذهب إليه بهذا القدر من التثاقل

والتأفف، وأرى كل هذا القبح ساكنًا ملامحه، التي تغوص وتطفو في الضوء الأصفر الشحيح.

قال لي كالمعتذر:

– ناديت باسمك هكذا لأنني أعتبرك ابني.

كان مثل هذا القول من قبل يجعلني أكاد ألقي بجسدي في حضنه الناشف، لكنني هذه المرة تلقيت ما تلفظ به بفتور، وإن كنت، على أي حال، لم أفقد الامتنان له تمامًا.

ما حلَّ بي في الساعات الأخيرة من عمري، الذي يمضي سادرًا في رحلة شقائه، كان عصيًّا لدي عن التفسير، ولم أكن معنيًّا بالتفكير فيه بجدية، ليس لأن ذهني مكدود هذه الليلة، بل لأني كنت أهرب من كل هاتف يصرخ داخلي أو يهمس، وأريد لكل شيء أن يصمت، ويغمض عينيه، وينعم بالسكون والسلام.

حتى حين اختليت بنفسي في غرفتي لم أجرؤ على الحملقة في صورتي التي تواجهني فوق صفحة المرآة المكسورة. كان نور لمبة السقف في عيني، وكذلك اللوح اللامع المصقول، الذي تحط عليه ذرات تراب، بما جعلني لا أرى نفسي جيدًا.

كنت مختبئًا خلف الغبار الخفيف، والشعور بالجبن والنذالة والأفكار البالية الراقدة في رأسي، والساكنة في خلاياي.

فجأة ظهرت تحت التراب الخفيف على صفحة المرآة صورة فتاة، لم أتبين ملامحها جيدًا، لكني استدعيتها من ذاكرتي، وأسقطت ما استدعيته على ما أراه مغبشًا أمامي، فإذا بي أتيقن أنها التي مرت جديدًا في حياتي.

(5)

كانت هي، التي تريد أن تتسلل في هدوء إلى شراييني.

سمعت أحد زملائي يصفها بالأجمل في دفعتنا، لكنني كنت لا أزال أرى الجمال هو «سميرة»، ومع هذا كان من الجحود والتنطع أن أرى غير ما يرى.

جميلة الجسد هي فعلًا، لكن ما جذبني إليها أكثر هو جمال عقلها. كانت تليق بأن تكون حبيبة فيلسوف، أو تحب من يريد أن يكون أكبر فيلسوف يكتب بالعربية.

ووجدت نفسي أرسل إليها نظرات خاطفة، وأهرب قبل أن تضبطني، ثم أضبطها تنظر إليَّ، وتهرب وهي تظن أنني لم أضبطها.

كان هذا في المحاضرة التي أعقبت حديثها إليَّ، حين اقتحمت صمتي وتوحدي، بعيدًا عن زملاء أدري عنهم أشياء، ولا يدرون عني شيئًا.

جاءتني بعد المحاضرة فذهبت إليها، والتقينا في منتصف الردهة الطويلة، صافحتني، ودون مقدمات سألتني:

– هل لديك وقت لتناول فنجان من الشاي معًا؟

أومأت موافقًا، وسرت إلى جوارها صامتًا. لمحت في يدها كتابًا في الفلسفة ورواية. مسست الرواية بإصبعي، وسألتها إن كانت قد فرغت منها، فقالت:

- في الفصل الأخير.

ورأت في عيني رغبة فاستجابت لها:

- سأعطيها لك بعد الانتهاء منها.

قلت في خجل:

- على سبيل الاستعارة.

وكنت أعرف أنني أكذب، إذ لم أستعر كتابًا من قبل ورددته إلى صاحبه، لكنها كانت أكرم مما تصورت:

- يمكنك ألا تعيدها، أو تنتظر لأهديك نسخة جديدة.

اكتفيت بأن أحصل على النسخة التي في يدها، وقلت مقتربًا منها أكثر:

- أفضل تلك التي قرأتِها أنت.

كنت قد تدربت على اصطياد الغزلان، تعلمت في «سميرة» التي منحتني شفتيها عن طيب خاطر، وتركت يديَّ تطوفان بجسدها، وها هو طيفها لا يريد أن يغادرني حتى في جلستي مع الفيلسوفة الجميلة.

عرفت أن «أسماء» تقطن في فيلا بحي «المهندسين»، حين نطقت بهذا ارتعد جسدي، ورأيت نفسي وأنا أتلصص على الوجوه والجيوب أمام مسجد «الحامدية الشاذلية» وأدور بين الأجساد، كثعلب جائع.

شعرت أن بيننا مسافة طويلة، وأني لن أقدر على اجتيازها. وزادت هي في طولها، وألقت فيها صخورًا وأشواكًا وجمرًا، حين قالت:

- أبي رجل أعمال، ولذا كان يريد لي أن أدرس الاقتصاد، لكنني عشقت الفلسفة والأدب.

انسحبت داخلي متدثرًا بعوزي وخجلي الذي يتداعى بمرور الأيام، لكنني بقيت عاريًا.

وحطت الشمس على يدها فلمعت في عينيَّ أسورة ذهبية عريضة معشقة بفصوص شفافة شديدة اللمعان، ربما تكون من الألماس، أنا لا أعرفه، مثلي لم يقابله في أي يوم، لكن بدا الشيء لي هكذا. في جيدها سلسلة تنتهي بروش كبير على شكل قلب، وقلت لها وأنا أنظر إلى معصمها وعنقها:

- فيلسوفة مشغولة بالذهب.

نظرت هي إلى حيث أرسلت عينيَّ، وقالت:

- ماما تصر على هذا، ولا أريد أن أغضبها.

ضاعت نصف المسافة بيننا، لكنها أعادتها مرة أخرى:

- لا تشغلني الزينة، وإن كان رغد العيش يبهجني.

استعدت صورة «عبد الشكور» وأولاده، وصورة أستاذي الراحل الذي حدثنا عن فلسفة التحايل، وقلت لها:

- هناك من تدفعهم بطونهم الجائعة إلى فعل ما لا تتصورينه من أجل ملئها.

زمت شفتيها في أسى مصطنع وقالت:

- لم أر مثل هؤلاء، ولذا لا أجد لما تقوله أثرًا قويًا في نفسي.

ضايقني ما نطقت به، وسارعت إلى تذكيرها بما سمعته:

- حدثنا أستاذنا عن هؤلاء باستفاضة. قربهم إلينا حتى رآهم مَنْ لم يمر بهم يومًا.

طوحت يدها في الهواء:

- لم أصدقه حين تصور أن لهؤلاء بابًا للسعادة لا يمر به غيرهم.

استدعيت صور الكادحين في الحقول:

- هناك من يجهلون الرغد، ويرضون بشظف العيش على أنه ما يجب أن يحبوه.

- لا يعرف فضل النعمة إلا من ذاقها.

- حاصرتني في احتياجي وهواني، فلذت بالصمت، لكنها لاحقتني بسؤال لم أنتظره منها على الأقل في هذا الوقت:

- أين تسكن؟

ملأت عينيَّ من البيوت الخفيضة، والوجوه الضامرة، وأكوام القمامة، والقطط التي تطارد الفئران، والبط السابح عند الصنبور الضخم المكسور، والذي لا يكف عن تفريغ بعض ما فيه على طين لازب، وقلت لها:

- «تل العقارب».

رنت ضحكتها في الفراغ المحصور بين كليتي «الآداب» و«الحقوق»، وسألت:

- هل هناك حي بهذا الاسم؟

- نعم.

- وهل تسكنه عقارب فعلًا؟

- بل بشر، أغلبهم ضفادع وسحالٍ ونمل وجنادب، وقلة منهم عقارب.

- آسفة لم أسمع عنه من قبل.

- لا بأس، أعتقد أن هناك أشياء وأحياء وأسماء كثيرة لم تسمعي عنها، وقد لا تسمعين.

تنهدت وقالت:

- القاهرة صارت متاهة كبرى، قارة بأكملها.

أخذني ما قالته إلى كل ما رأيته وأنا أتطوح وفمي يغرد في الحافلات التي تشق شوارع المدينة، وعدت من شرودي على قولها من جديد:

- لهجتك تبين أن أصولك من الصعيد.

- رائع، لكن كيف عرفت؟

- ربنا يبارك في المسلسلات.

- فعلًا أنا من قرية بمحافظة سوهاج.

- ما اسمها؟

- الكُشح.

رنت ضحكة أقوى من الفائتة، وقالت:

- «تل العقارب» مفهومة أكثر، وتثير الفضول والخيال، أما الكُشح، فغريبة، ولا أعتقد أن لها معنًى.

ورأيتها تقف فجأة، وتنظر في ساعتها وتقول:

- لا بد أن أنصرف الآن، فأبي دعاني إلى معرض للفن التشكيلي.

وقفت وقلت لها:

- رائع.

فباعدت بيننا من جديد حين قالت:

- أبي مولع باقتناء اللوحات، وفي بيتنا منها ما يقدر بالملايين.

وضعت يدي على الجنيهات القليلة النائمة في قعر جيبي، وودعتها وانصرفت صامتًا.

(6)

ما إن دخلت الزقاق حتى وجدت غلامًا رفيعًا، خده مشقوق بأثر جرح قديم، وفي يده مطواة قرن غزال، يلفها بين أصابعه في خفة، ويمزع بها الهواء. اقترب مني وسألني:

- أنت «رفعت»؟

أومأت برأسي:

- خير.

- المعلم «سعد» عاوزك.

وسار خلفي يهز سلاحه الأبيض فيحدث أزيزًا وشخللة تزيدني خوفًا، وأنا ذاهب إلى المقهى وأعرف ما الذي سيجري لي. هززت رأسي لعله يسعفني بفكرة، وأنا أغمض عينيَّ قليلًا، حتى وجدت نفسي أمامه، وهو جالس بين صبيانه، مزهوًّا بقوته.

نظر إلي بطرف عين غارق في الأذى والأرق، وقال:

- أمثلك يكذب عليَّ؟

خفضت رأسي قليلًا، وأجبته:

- حاش لله، هذا لم يحدث قط.

راح يمعن النظر في وجهي المطلي بنور أصفر فاقع ينبعث من مصباح معلق في جانب الحائط وقال:

- ألم تقل لي ...

قاطعته:

- أنا لم أقل شيئًا، هي التي قالت وأنت صدقتها.

أوقفته جرأتي المفاجئة، فتريث في حديثه:

- صحيح، لكنك جاريت الكذبة، وخدعتني.

- لم أخدعك، وما قالته ليس كله كذبًا.

- لا أفهمك.

-ألم تقل لك إني أخوها؟

- نعم.

- أنـا أعتبرها أختـي الصغرى، وهي تعتبرني مثـل أخيها، والأمر لا يتعدى هذا، سواء كانت في الأمر رضاعة أم لا.

زال عنه بعض غضبه، ثم تجهم من جديد:

- لعبة جديدة.

قتلت ابتسامة صفراء كادت ترتسم على شفتيَّ وقلت:

- هي تناسبك، أنت لها وهي لك، أما أنا فغريب أتى ليكمل دراسته وسيذهب عـما قريب مـن هنا، وإن فكـر في الزواج فسيبحث عن فتاة متعلمة مثله.

تسرب الغضب من وجهه، وقال:

- عين العقل.

ووجدتها فرصة أن أُحيِّده إلى حين، فقلت:

- يمكنك أن تعتمد عليَّ في الوصول إلى ما تريد.

- أتراوغ مرة أخرى؟

- بل أنا جاد، وفي سلو بلدنا: يُربط الرجل من لسانه.

هز رأسه وقال:

- سنرى.

وخطف بيده اليمنى كرسيًّا ووضعه إلى جانبه، وأشار لي أن أجلس وهو يسألني:

- ماذا تشرب؟

رفعـت رأسي إلى النـادل الـذي أسرع إلينـا بمجرد أن فرد «سـعد» إصبعه في اتجاهه، وقلت:

- حلبة حصى بحليب، وزود السكر.

تابع بطرف عينه ظهور النادل وهو يتطوح بين الطاولات وقال:

- ينفع منشد في الأتوبيسات.

شـعرت بألم في بطني، ومددت يدي إلى جرحي الذي كان قد اندمل تمامًـا، أمـا الإهانة فلـم أجد مـا يطببها، ومـع هذا تحاملـت على نفسي، مسـتعينًا بالمهـارة التي اكتسـبتها في التبجـح وأنا أمد يـدي إلى الناس في الحافلات أو أمام المسجد المسربل بأضواء خضراء.

بلعت ريقي وقلت له:

- لقمة حلال وخلاص.

قهقه حتى اهتز الكرسي من تحته وقال:

- يا رجل! حرام بنت حرام.

- أهي سرقة؟

نظر في وجوه الجالسين حوله وقال:

- نصب.

بلعت كل الإهانات الملتصقة بهذه الكلمة، ونظرت في عينيه بعد أن دفعت قدرًا من التحدي في عينيَّ، وقلت له:

- أكل عيش، كنت أوزع الفرح وأجمع ما يملأ بطني.

ابتسم في خبث وقال:

- وهل ما توزعه أمام مسجد «الحامدية الشاذلية» فرح أيضًا؟

كأنه لسعني بسوط حام، لكنني تمالكت نفسي وقلت له وأنا ألملم الحزن عن وجهي:

- عن أي شيء تتحدث؟

ضحك من جديد وقال وكأنه يريد لكل من في المقهى أن يسمعوه:

- أنا لا أعرف ما يدور في «تل العقارب» فقط، بل أعرف كل ما يفعله سكانه في أي مكان يذهبون.

سخرت داخلي من هذا الذي يعتقد أنه أكبر ضابط أمن في البلد، وقلت له:

- الكبير كبير.

شمخ بأنفه وطاف بطرف عين بوجوه الجالسين حوله، ورد في صلف:

- غصب عنك.

بلعت إهانتي، وقلت له:

- ولمَ الغصب؟ أنا أقولها عن طيب خاطر.

لم يرد، وشعرت بثقلهم جميعًا على نفسي، فقمت، وأنا أقول:

- لا بد أن أنصرف، عندي امتحان.

مد يده وهو جالس وقال في سماجة:

- سأنتظر نتيجة ما وعدت به يومين فقط، ولن أنتظر أكثر من ذلك.

لم أنظر في عينيه وأنا أنصرف من أمامه، لا أعرف إن كان هذا خوفًا أم احتقارًا، لكنني رأيت كل شيء في عيني «عبد الشكور». كانتا مملوءتين بهلع لم أعهده فيهما من قبل. وكان هو يتململ في مكانه فتصرخ «الكنبة» تحته بأزيز حاد، لم يمهلني حتى ألتقط أنفاسي المبهورة، بل عاجلني:

- فتحت علينا باب جهنم.

ضغطت أضراسي حتى سمعت صوت اصطكاكها الحاد، واستدعيت شيئًا من شهامة الرجال الذين تتردد سيرهم في ليالي السمر بقريتي وقلت له:

- لا أعرف سر خوفك من هذا الفسل الذي صنعته.

طوح يده في وجهي:

- فسل!

- لا يساوي في سوق الرجال قدح غلة.

هز رأسه:

- ومـن مثـل هذا تخاف، الجبـان الذي لا أصل له حـين تلتف حوله عصابة من التافهين مثله، وليس لدى أي منهم ما يخسره.

وزفر في ألم وواصل:

- أنـت أمامك مسـتقبل تخـاف عليه، وأنـا عنـدي أولادي، أما هو فيتساوى عنده السجن والمقهى، الموت والحياة.

أردت أن أشد من أزره على قدر استطاعتي:

- أولادك هم عزوتك، وأهلي الذين بوسـعي أن أسـتدعيهم إن لزم الأمر.

ضحك في مرارة وقال:

- سيأتي أهلك قطعًا، لكن لاستلام جثتك.

- ألهذه الدرجة؟

- ستمزقك السكاكين في الليل، أو يخرم رأسك عيار ناري، وستقيد الجريمة ضد مجهول.

كنت أريد أن أقويه فأضعفني، ووهن صوتي وأنا أقول:

- أنت تُكبر الصغير.

لكنه زاور عينيه بعيدًا عني ورد في ضيق:

- وأنت لا تدرك ما الذي سيجري لك ولنا.

الفصل السابع

(1)

استيقظت في الصباح على دقات قوية تتوزع في خط طويل، تتناغم أحيانًا، وتتنافر في أحايين. كانت عنيفة واقتحمت عليَّ حلمًا لذيذًا، وشعرت أنها تنقر في رأسي. قمت إلى النافذة ومددت عنقي لكن الكراكيب المتراكمة فوق سطح البيت المجاور جعلتني لا أرى.

عدت إلى سريري، تقلبت عليه كثيرًا، وجذبت الوسادة الممزقة، وسحبت منها خيطين غليظين من القطن القديم الذي صار لونه رماديًّا، كورتهما بين أصابعي، ودسست كل كرة في فتحة أذن، ودفست رأسي تحت الغطاء، لكن الدقات لم ترحل.

أزحت الغطاء عن جسدي، ونزعت كرتي القطن من أذنيَّ، وضربت الهواء بكفي، وأنا أطرد التثاؤب الثقيل، وأتابعه وهو يتناثر في جنبات الحجرة. حطت عيناي على ملابسي المعلقة على المسامير المدقوقة في الحائط، فخطفتها وجريت نحو الزقاق.

لم ألق السلام على «عبد الشكور» الذي سمعت صوت سعاله وبصاقه حين أعطيته ظهري، ووصلت إلى شارع «بور سعيد» فوجدت الناس جميعًا مأخوذين بالدقات العالية للشواكيش، والأزيز والصفير الذي تحدثه مناشير، هكذا قدرت وأنا أسير نحو مصدر الصوت، حتى رأت عيناي كل شيء.

كانوا نجارين موزعين تحت الكوبري، في أيديهم ألواح من خشب، وتحت أقدامهم ألواح أخرى، وعلب صفيح مملوءة بالمسامير، ولفائف من صاج مقوى، ولوحات مكتوبة عليها حروف بخطوط مختلفة راقدة فوق بعضها في غير انتظام.

اقتربت منهم وسألت عما يجري فقيل لي:

- نبني أكشاكًا لبيع الكتب القديمة.

رقصت داخلي دفقة فرح رغم الغم الجاثم على نفسي، ونسيت للحظة ما كنت فيه، وملأني إحساس بأن الكتب ستجعل هذا المكان أقل بؤسًا، على الأقل لأمثالي، وسيقصده الساعون وراء المعرفة.

وطردت لدقائق الكوابيس التي تنتظرني مع «سعد سُلطة» ووجه «عبد الشكور» المكفهر، وأقبلت على النجارين كأنهم يفعلون كل هذا لي، لحسابي، وسألت رجلًا واقفًا يتابع العمل باهتمام:

- أكشاك كتب؟

هز رأسه وقال:

- مترو «العتبة» فرق بين بائعي سور الأزبكية، وهنا نصيبنا.

استعدت كل ما أعرفه عن «سور الأزبكية»، الذي ذهبت إليه ثلاث مرات منذ مجيئي إلى القاهرة، وقلت له:

- هذا المكان سيشد زبونه.

أرسل نظرة شاملة إلى النجارين المنهمكين في عملهم، وقال:

- الرزق على الله.

بعد يومين جاءت عربات نصف نقل وكارو محملة بالكتب، وانهمك رجال في تفريغها على الأرض، وتولى أصحاب الأكشاك توزيعها على الأرفف التي فهرسوها على صنوف المعارف.

وأصبحت أنا أول زبون، بعد أن اجتهدت في الليلة الفائتة أمام مسجد «الحامدية الشاذلية» بأقصى طاقتي، وصار معي مبلغ يكفي لشراء زاد ثلاثة أشهر من الكتب.

ورأت «أسماء» كتابًا في يدي، وسألتني عن المكان الذي اشتريته منه، فحكيت لها عن صناديق المعرفة التي تلاصقت تحت الكوبري، وقلت لها: إن بينها وبين غرفتي دقائق معدودات، فامتلأت شغفًا، وأصرت أن تذهب مباشرة إلى هناك.

بعد المحاضرة أخذتني إلى سيارتها، دارت حولها، وفتحتها وأخرجت بعض المناديل الناعمة ومسحت بقعة صغيرة من الوسخ كانت على زجاجها الأمامي.

- «بيجو 504»

هكذا قالت حين سألتها عن نوعها، رغم أنني لا أفهم، ولم أسع إلى فهم أنواع السيارات وخواصها. وأتبعت إجابتها:

- أحب كل شيء فرنسي، في الثقافة والأطعمة والأزياء والعطور، حتى السيارات.

قلت في داخلي:

- «الكشح» و«تل العقارب» في وجه «باريس» ... يا للهول!

وسألت نفسي:

- أي شيء أعجبها فيَّ؟

وفزعت إن كنت بالنسبة لها مجرد نوع جديد من البشر، لم تره من قبل، وقررت أن تجربه وكفى، كما تقرأ بعض كتب الغرائب.

لكن شعرها الذي تطاير على كوبري الجامعة بينما السيارة تمرق في الطريق المفتوح، حمل معه كلامًا كثيرًا لم تقله، لأنها بدت مستريحة وأنا أشم رائحته العطرة، ولم تعترض حين داعبته بأناملي. وحين تباطأت السيارة عند مدخل حي «المنيل» قالت:

- آسفة، ضايقتك.

لكنني سارعت إلى القول:

- هذا أسعدني.

ابتسمت في عذوبة، ولملمت شعرها المبعثر بمشبك برتقالي قريب من لون فستانها. ومن تحت إبطها المرفوع نحو رأسها لمحت صدر «عزازي» وهو واقف مكانه، ويده ممدودة بالمناديل نحو السيارات. أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى حتى لا يراني، ولأنه لا يتوقع أبدًا أن يجدني جالسًا في سيارة مثل هذه فلم ينتبه لي.

اشترت هي علبة مناديل، ومدت إليه ورقة بخمسة جنيهات، وحين دس يده في جيبه ليرد إليها البقية، أشارت بيدها إليه أن يحتفظ بها، فراح يدعو لها، والسيارة تتحرك إلى الأمام.

التفت إلى الخلف فوجدته لا يزال واقفًا يلوح للسيارة بيده حتى اختفينا في مدخل شارع «قصر العيني»، فضعنا من عينيه.

أرشدتها إلى الشوارع التي كان عليها أن تسلكها حتى نصل إلى أكشاك الكتب. وفي شارع «بور سعيد» بان لي «أبو عوف» واقفًا كسيمافور صدئ، يمد يده للسيارات العابرة، ووجع الانتظار الذي لا يتوقف يسكن ملامحه.

هممت أن أشير إلى البيوت المتداعية التي تتساند على بعضها كأعواد ذرة تضربها عاصفة، وأقول لها: ها هي «تل العقارب»، لكنني لم أجرؤ على النطق بحرف واحد. حتى إصبعي التي كنت قد مددتها نحوها، طويتها في خجل، وحمدت الله أنها لم تلاحظ ذهابها وإيابها السريع.

أبطأت لتركن سيارتها، لكنني طلبت منها أن تتقدم إلى الأمام، وتتوقف تحت الكوبري، أو في الساحة الواسعة المؤدية إلى محطة مترو «السيدة زينب» حيث يقف بائعو الفاكهة خلف عربات الكارو، التي كنسوا حولها ورشوا ماء، ليطردوا الذباب الجائع.

من نافذة السيارة رأت الأكشاك المفتوحة، ذات الأبواب المطوية في الأعلى تحت اللافتات التي تحمل أسماء قريبة من النفس:

«مكتبة المعرفة»

«قنديل أم هاشم»

«العهد الجديد»

«الكتاب الذهبي»

وبانت كعوب الكتب المرصوصة على الأرفف، وتلك المفرودة فوق طاولات مستطيلة، والأخرى التي تحط على الأرض وتصنع أعمدة طويلة.

صرخت «أسماء»:

- واو ...

قالتها بدهشة وخفة ممزوجة بغنج أنثوي لذيذ، رقصت له خلايا جسدي. وكانت المرة الأولى التي يتحرك داخلي شيء من هذا القبيل حيالها.

فتحت الباب، واندفعت إلى الأمام وأنا ألاحقها حتى تحاذينا. ودون قصد مني مست أطراف أصابع يدي أصابعها؛ فضحكت، وأطلقت في نفسي سعادة غامرة، لكن فجأة ماتت الضحكة والسعادة وفسد كل شيء.

بانت «سميرة» عند أول كشك يلي محطة المترو، وتقدمت نحونا متنمرة، أكاد أسمع صوت زئيرها المكتوم، الذي سرعان ما صار غمغمات مسموعة، ثم سؤالًا متوقعًا، وأظفارها مغروسة في كتفي:

- من هذه؟

نزعت كتفي من أظفارها، وأجبتها:

- «أسماء» زميلتي في الكلية.

مسحتها بغيظ من أخمص قدميها حتى ناصيتها، وقالت بصوت فيه شيء من فحش:

- أسماء أم سم؟

وشعرت بالإهانة؛ لأنها لم تراع وجودي، وطغت عليها الغيرة؛ فأفقدتها بعض الكياسة المعروفة عنها، فقلت لها في غيظ:

- هذه بنت ناس.

سحبت الهواء بأنفها خفيفًا، وكنت أظن أنها لن تفعل هذا أبدًا، وقالت بصوت أكثر فحشًا:

-يعني أنا بنت كلب.

أومأت برأسي نافيًا، ووجدتها فرصة أن أبرد خواطرها المحمومة:

- إنت بنت ناس طيبين، والطيبون يكرمون ضيوفهم.

صمتت قليلًا، وظننت أن الغضب قد زال عنها، لكنها انفجرت:

- خليها تنفعك.

وطوحت يدها في وجهي، ومضت تثير غبارًا بنعلها الخفيض، وتنفث في ليونة ما قبل غياب الشمس سعارها، الذي راح يتطاير في وجوه العابرين.

ذهبت عني وتركتني شاردًا في وجهها المختلف عما ألفته. وجه آخر لم أره من قبل، وربما هو وجهها الحقيقي الذي كانت تخفيه عني بمهارة بائعة تطارد زبائنها العابرين.

(2)

حين عدت لقيني «عبد الشكور» بوجه لم أره من قبل. كان العبوس يصنع حول رأسه دوائر سوداء، وكانت شفتاه مزمومتين في قسوة، تحبسان كلامًا بذيئًا يريد أن ينفلت.

وقلت في نفسي عنه وعن ابنته: «بانت حقيقتكما».

أما هو فبدون مقدمات قال لي:

- خد هلاهيلك وامش.

اقتربت منه في حذر، وحاولت أن أجلس كعادتي إلى جواره، لكنه أشار بيده ألا أفعل، فتجمدت مكاني، وأنا أداري رعدة سرت في أوصالي، فقد كانت له هيبة أو بقايا منها، رغم نحوله والتجاعيد التي تملأ وجهه وعنقه، وأسنانه المثرمة، وعينيه الكليلتين اللتين لا تسعفانه أن يرى أبعد من الجدار المقابل للزقاق، وركبتيه اللتين خانتا جسده.

صمت برهة، ونظرت إلى ملامحه فوجدتها لا تزال صارمة؛ فقلت له:

- أمهلني حتى بعد غد؛ لأبحث عن سكن.

سعل وبصق، لكنه لم يلبث أن غلب فوران صدره، والتقط بعض أنفاسه المبهورة، ورد في جفاء:

- ليس لك عندنا إلا الليلة.

قلت في صوت خفيض:

- حاضر.

وصعدت السلم المتهالك مطأطئ الرأس، حتى وصلت إلى باب غرفتي، وما إن فتحته حتى شعرت بيد تحط على كتفي، وتدفعني إلى الداخل، كانت «سميرة».

عاتبتها على ما فعلت؛ فقالت في هدوء، كأنها غير تلك التي قابلتني قبل ساعات عند أكشاك الكتب:

- غصب عني، هذا من غيرتي عليك وحيرتي.

قالتها هكذا وكأنها قد جهزتها طيلة الساعات الفائتة كي تجعلني ألتمس لها عذرًا.

قلت لها وأنا أجلس على سريري في انكسار:

- عمومًا، هذا كلام فات أوانه، أنا سأرحل غدًا.

ضربت على صدرها:

- ترحل! من قال هذا؟

- أبوك.

ابتسمت وردت:

- هو زعلان على زعلي، وإن جعلتني أرضى فسيرضى عنك.

نظرت إليها في غيظ، وسألتها:

- وكيف أجعلك ترضين؟

لم تضيع وقتًا. اقتربت مني، وأخذت وجهي بين كفيها، وقبلتني في نهم، وأنا عازف عن مبادلتها اللهفة والحرارة.

دفعتني إلى الخلف وقالت في حنق:

- أصبحت باردًا.

تنهدت في ألم وقلت لها:

- كرامتي مجروحة، وذهني شارد.

- ما عاش من أهانك، ولا تشرد وأنا معك.

وسكتنا برهة فجاءنا صوت من نافذة مجاورة لامرأة تغنج، ورجل يتوسل إليها طالبًا منها أن تقترب منه، ثم رنت ضحكتها فسمعنا صفعة على جلد ساخن، وبعدها توجع وتنهدات وشهقات.

اشتعل جسدي، وراحت «سميرة» تلتصق بي، وتترك يديَّ تمرحان في جسدها كيفما شاءتا، حتى صارت بين فخذيها، تلامس حريرها الخشن، بينما شفتاي تطوفان بشفتيها وجيدها ثم تهبطان إلى صدرها.

صمتت أصوات الوجع اللذيذ الآتية من الخارج، وبدأت أصواتنا نحن ممزوجة بعرق ساخن، وتوغلت يدي أكثر من أي وقت مضى فقفزت مني؛ لتسقط على الأرض، وهي تصرخ:

- ماذا تفعل يا مجنون؟

سرت في جسدي برودة، قللت من رغبتي المحمومة، وفسد ما كنت أنا مقدمًا عليه، أو صلح في الحقيقة، فقد كنت على وشك أن أفعل ما لا هروب منه، وما قد أندم عليه بقية حياتي.

عاد إليَّ وعيي، وتذكرت ما فعلته مع «أسماء» فقلت لها في تقزز:

- من يراك عند أكشاك الكتب وأنت تغرسين أظفارك في كتفي، لا يراك الآن هنا وأنت مرمية تحت قدمي.

دمعت عيناها وقالت:

- في الحالتين أنا أحبك.

فقلت لها في ضجر:

- إذا تعارض الحب مع الاحترام فليذهب الحب إلى الجحيم.

اقتربت مني مرة أخرى، وأمسكت يدي وقالت:

- لا تكن قاسيًا.

وتنبهت إلى أن الاحترام الذي أتحدث عنه قد ذهب منذ أن مددت يدي في الحافلة وأمام المسجد، فانكمشتُ، وانتابني صمت، لتتابع أذناي نشيجها، وأرى دموعها تلمع في ضوء الغرفة المسلط على رأسينا.

اقتربت منها، وربت على كتفها، وقلت لها:

- لم يبق لي هنا سوى ليلة، فلا أريد أن أرحل وآخر ما أراه منك هو الدموع.

اكتسى وجهها بالأسى وقالت في جزع:

- ترحل؟!

أومأت برأسي وأجبتها:

- أبوك طلب مني هذا.

انتزعت ابتسامة خاطفة من أحزانها وقالت:

- كنت منفعلة، وطلبت منه هذا، وهو لا يرد لي طلبًا.

ومدت يدها وقبضت على يدي:

– لا تخف، سأطلب منه أن يجعلك تبقى.

في الحقيقة لم أكن خائفًا، بعد أن عرفت طريقًا لالتقاط رزقي بعيدًا عن مملكة «عبد الشكور»، وفقدت بعض حرصي على البقاء هنا بعد أن ظهرت «أسماء» في حياتي، وصار طيفها يطارد صورة «سميرة» ويبدد كل يوم جزءًا منها، فتسقط هنا تحت جدار الزقاق، حتى وجدت نفسي أتساءل: هل كانت مشاعري حيال فتاة «تل العقارب» حبًّا أم شغفًا عابرًا؟

ولاحظت هي شرودي، وأردت أن ألاحقها قبل أن تسألني، وتدرك الكذب في إجابتي، فسألتها أنا:

–كيف تتسللين إلى هنا؟

زاورت عينيها قليلًا وأجابت:

– إياك أن تعتقد أنني أغافل أبي وأمي.

صفعتني إجابتها، فاستفسرت عما تقصد، فردت في وضوح:

– أبي يعرف كل شيء.

– وإخوتك؟

– إخوتي يسرقهم الشغل، ويعودون متعبين للنوم، ولا يدري أي منهم عن أخيه شيئًا.

تنحنحت وعدت لأسألها:

– تقولين لأبيك كل ما يجري بيننا.

– ليس بالضبط، يعرف أنني أحبك، وقلت له: إنك تحبني، أليس كذلك؟

ضايقني سؤالها، والإلحاح الذي ملأ مقلتيها، فتجاهلته، وأعدتها إلى مجرى الحديث:

– وماذا يعرف أيضًا؟

ردت في غيظ:

– هل جننت؟ أتعتقد أن أبي يعرف ما كنت تفعله بي منذ قليل؟!

– يعرف على الأقل أنك تصعدين إلى هنا.

– هذا سطح بيتنا.

– وأنا أسكن غرفة فيه .. أعزب وغريب ووحيد.

– أبي يثق بي.

– وهل أنت جديرة بهذه الثقة؟

نفخت متألمة وقالت:

– نعم.

ضحكت من أعماق سوداء، وقلت في استهانة:

– غريبة.

فركتْ يدها اليمنى في اليسرى، وحاولتْ أن تبادلني الاستهانة:

– ما الغريب؟ أنت لم تنل مني إلا ما أعطيته لك، وهو بسيط.

– لكن ..

قاطعتني:

- لا تكمل، لا أنت ولا ألف مثلك يجعلونني أضعف، وأتركك تأخذ ما ليس لك.

- ما ليس لي؟!

- الآن على الأقل.

تذكرت ما كنت أفعله بها قبل قليل، وقلت لها متحديًا:

- ما أخذته منك في عرف بلدنا تسيل له أنهار من دم.

ضحكت، ومصمصت شفتيها وقالت في تبرم:

- هذا في بلدكم يا شاطر، أما هنا فما أعطيه لك هو القليل.

ونظرت إلى النافذة وسألتني مستنكرة:

- أنسيت ما كنا نسمعه قبل قليل؟

وقامت من مكانها، وطوحت ذراعها في الهواء فوق رأسها فصنعت ثلثي دائرة، وقالت:

- هنا يرى الصغار آباءهم فوق أمهاتهم، ويسمعون أصوات تهارشهم، ويطارد الأولاد البنات تحت ظلام الحيطان، ويرى الكلُّ الكلَّ من فتحات دورات المياه القذرة التي تتشارك فيها عائلات وعائلات .. هنا لا حرمة لأحد، منا المسطول بالبانجو، والمنهك بالفشل الكلوي وتليف الكبد.. أنت جديد علينا، ولا تعرف كل شيء عنا.

قالت هذا في تأثر، لكنها أخفقت في أن تجعلني أحدب عليها، أو كنت من التبلد بحيث لم أهتز، ولم أبذل أي جهد حتى أطرد دفقة عارضة من شفقة، سرعان ما ذابت في الهواء.

وحين أخذت «سميرة» تخطو بهدوء نحو الباب، شعرت أنها تنسحب من قلبي.

(3)

حين هبطت قبيل الظهر ذاهبًا إلى الجامعة قابلني «عبد الشكور» بوجه بشوش. تبدل حاله من الليل إلى النهار، وأدركت أن «سميرة» أوفت بما وعدتني به، وأيقنت أن لي في هذا الحي البائس أيامًا أخر.

كنت أريد أيامًا قلائل لأدبر حالي، وشردت طيلة الليل في الأحياء التي تعانقها عيناي، والتي ليس لمثلي أن يحلم الآن بأن يقطنها، واستقر بي الترحال ورأسي ملقى على الوسادة البالية، في حي «الناصرية»، أو أعبر شريط المترو إلى حي «المنيرة»، وقد أترك الجمل بما حمل وأعيد البحث عن سكن قبالة الجامعة في حي «بين السرايات» أو عن يمينها حيث حي «أبو قتادة».

حين وصلت مسحت المدرج بعيني بحثًا عن «أسماء» فلم أجدها. اقتربت من صديقتها «عُلا» وسألتها عنها بلسان متلعثم، فقالت:

- أبلغتني أنها متعبة، وستمكث في البيت، وطلبت مني أن أمر عليها بعد المحاضرة.

طأطأت رأسي قليلًا، وأبعدت عيني عن مستوى نظرها وقلت لها:

- أبلغيها سلامي.

وخرجت من باب «كلية الآداب» حيث الباحة الوسيعة أمام القبة النحاسية، وجلست على مقعد حجري بين حشائش مبسوطة ومنسابة، وورود مختلف ألوانها، وأشجار مقصوصة في دقة، ونخل قصير. فتحت

جريدة «الأهرام» على صفحة الوفيات، وعرفت ممن ألتقط رزقي حين يحل الليل.

اطمأننت إلى سكني، وإلى رزقي، ووجدت أن ساعتين كاملتين تفصلانني عن المغرب، فقلت أستغل الوقت في محاولة أخرى نحو رزق ثابت وكريم.

ركبت حافلة إلى «قصر العيني» ونزلت عند المحطة التي تلي مبنى مؤسسة «روز اليوسف» مباشرة، وعدت خطوات إلى البوابة الضيقة المهيبة. وما إن رآني موظف الأمن حتى هز رأسه وقال:

- أنت مرة أخرى؟

ضايقني كلامه، الذي لا يمكن لإنسان ذي مروءة أن ينطق به في وجه أحد، حتى لو كان شحاذًا سمجًا. ومع هذا ابتلعت إهانتي، وقررت أن أتغاضى عن أي شيء سيتفوه به، وطلبت منه أن أصعد إلى قسم «شئون العاملين»، لكن وجهه تفرطح قليلًا بابتسامة صفراء، وقال:

- لا يوجد أحد الآن هناك، آخر موظف فيهم ينصرف عند الثانية ظهرًا.

أبديت إصرارًا على ألا أنفك حتى أنال شيئًا، فقلت له وأنا أدوس على الحروف بأسناني:

- سأسأل في مكتب رئيس التحرير.

لكنه تجاهل طلبي، وانهمك في تقليب دفتر طويل عريض ينام أمامه، ثم همس في أذن رجل يقف إلى جانبه، وعاد يقول:

- انتظر قليلًا.

ورفع سماعة الهاتف، وأدار القرص على أربعة أرقام، وسألني:

- ما اسمك؟

وردد اسمي في أذن من يسمعه على الناحية الأخرى، وذكر له طلبي، وصمت برهة، وهو يهز رأسه، وعيناه تمسحان رأسي ووجهي وصدري، ثم وضع السماعة في هدوء وقال:

- ليس هناك جديد.

خرجت صامتًا، وانعطفت يمينًا في شارع «المبتديان» حتى وصلت إلى «دار الهلال»، وهناك تركني موظف الأمن -الذي اعتاد رؤيتي- أصعد إلى رئيس «قسم الأرشيف والمعلومات»، الذي قابلني بترحاب، وأمر بإحضار كوب من الشاي الثقيل، لكن انتهى اللقاء بكلام طيب وحسن استضافة، ولا شيء غير ذلك.

ورميت بعض كآبتي تحت خطواتي، التي تقدمت نحو ميدان «السيدة زينب» حين انتظرت الحافلة التي ستقطع شارع «حسن الأكبر» إلى «باب اللوق» و«ميدان التحرير» ومنه إلى «حي المهندسين».

ما إن لاح أمامي مسجد «الحامدية الشاذلية» حتى وجدت شبحًا بين الظلام والنور، يتقدم ويعود، يفعل ما أفعله، وبتجسيم ليس بعيدًا عن ذاكرتي.

كان «حسونة»، وظهر لي أكثر مهارة مني بكثير في التقاط رزقه من جيوب الخارجين. اقتربت منه في حذر، وقبل أن ينتبه لي، وجدت نفسي أجفل منه، وأعطيه ظهري وأدخل المسجد مع المعزين. مكثت طويلًا منصتًا إلى تلاوة القرآن الكريم.

كان القارئ نحيفًا، يتقافز وتنتفخ عروقه، وتكاد عمامته تفارق رأسه، وهو يخرج صوتًا عذبًا نديًا، ورأيته أنا حين كنت أنشد في الحافلة، وأنا هو حين يجلس أمامي، وذهني موزع بين الانتباه لما يتلوه، وما يفعله الذي قفز على رزقي في الخارج.

جاء الناس وذهبوا غير مرة وأنا جالس مكاني، حتى قل الموجودون، وفرغ أغلب الكراسي، فقمت أجر ساقيَّ، حتى صارت عيناي في عيني «حسونة».

اتسعت حدقتاه، وقال متهكمًا:

-أهلًا «رفعت» بيه، مقالاتك عبقرية، أنا قرأتها جميعًا، وتعلمت منها كل شيء، ربنا يزيدك علمًا، وينفع الناس بك.

وقهقه، وضرب عمود الإنارة بكفه اليمنى.

لم أستجب لسخريته، وتقدمت إليه في تثاقل، ووضعت يدي على كتفه، وقلت له:

- لماذا غيرت العتبة؟

نفخ في ألم وقال:

- أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئًا.

- بمعنى؟

- أحد البهوات أبلغ عني الشرطة، ولولا خفتي لأمسكوا بي.

- هربت؟

- لم يتركوا لي حلًا آخر.

تمتمت في سري:

- قطعت رزقي يا غراب البين.

نظر إليَّ عميقًا، وسألني:

- هل قلت شيئًا؟

أجبته بكل هدوء:

- لا.

نظر في عمق قاعة العزاء التي بدت خالية، وقال:

- يمكننا أن ننصرف.

وضرب جبينه بكفه وقال:

- نسيت أن أسألك عما إذا كنت تعرف المتوفى.

سكتُّ برهة لأستجمع الإجابة، ثم نطقت:

- أب لصديق زميل لي بالكلية.

قهقه وقال في سخف:

- علاقة بعيدة جدًّا، ومع هذا لا يضر، فيك الخير.

ابتسمت في مرارة وقلت:

- لي نصيب أن أشوفك.

وقفزنا في حافلة آيبة إلى وسط البلد، ووجدنا مقعدًا خاليًا تجاورنا عليه. ومع ازدحام الطريق، ولدت فرصة لتبادل الحديث حول أشياء كثيرة.

قال لي وهو ينفخ:

- «سعد سلطة» يضيق علينا رزقنا.

نظرت إليه في إمعان وقلت بلا عناية:

-الرزق بالله يا أخي، من «سعد» هذا حتى يمنع رزقًا؟

سكت برهة ورد في قنوط:

-لا أستبعد أن له يدًا في طردي من عند جامع «عمر مكرم».

- ألهذه الدرجة؟

- يعرف ضباطًا فاسدين.

تذكرت كيف أنه قطع رزقي وقلت له:

-ومن أدراك أنه لن يطاردك عند «الحامدية الشاذلية»؟

- لن يذهب ذهنه إلى هذه.

ضحكت، وضربت ركبتي بكفي، وقلت له:

- يعرف المكان.

امتلأ وجهه بفزع، وسأل:

- كيف عرفت؟

- رأيت أحد صبيانه هنا، كان يقف خلفك، تحت الشجرة، تغطيه عتمتها، ويراقب ما تفعل.

لم أكـن قـد رأيت أحـدًا، لكنني أردت أن أخيفه حتى لا يـأتي الليلة التالية، ويقطع عيشي. ولم أكن أكذب فـ «سـعد» يعرف المكان بالفعل، ويُعيِّرني به، في تلميحات سخيفة طالما أوجع بها أذني ونفسي.

غرس أظفاره في المقعد الذي يسبقنا، ونظر إليَّ وقال:

- هو ينتقم منا بسببك.

- بسببي أنا؟

- طبعًا، أحد صبيانه أفهمني هذا.

- ماذا قال لك بالضبط؟

- أنت تريد الزواج من أختي «سـميرة» التي يريدها «سـعد» زوجة أو حتى جارية.

خطفـت المحلات المتلألئـة عيني فكنت أتابعـه بنصف أذن ونصف ذهن، لكن عبارته الأخيرة وخزتني، ووجدت نفسي أقول له:

- الـزواج قسـمة ونصيـب، وأجد مـن غـير الملائـم أن أنافس هذا البلطجي على أختك.

انكمش في مكانه وقال:

- طبعًا، أنت غيره، لكن هذه هي الحقيقة.

أدركـت وقتهـا أن كل مـن في البيت يشـارك في مؤامـرة صامتة على شـخصي الضعيف، ربـما غرهم ما قلته لهم أول يوم جئـت فيه إلى بيتهم بأنني في يوم من الأيام سأصير شهيرًا وثريًّا، أو أن «عبد الشكور» اعتقد أن مثلي هو الذي يلائم ابنته التي يفتخر بأنه قد رباها بطريقة مختلفة عن كل بنات الحي، وكان دومًا يقول:

- أخرجتها من الغابة بدري، وجعلتها تبيع الورد، لتصير وردة.

ظل «حسـونة» يثرثر وأنا أتابعه بنصف وعي حتى وصلنا إلى ميدان «أبو الريش»، وغطسـت رأسـانا في أضواء شحيحة تنبعث من اللمبات المشرعـة فوق محطة المترو، وتناهـى إلى آذاننا اصطكاك أبواب أكشـاك الكتـب، وزمجرة عجلات الحافلات التي تستعد للمكوث مكانها حتى الصبـاح، ونقرات الدومينو والطاولة عـلى المقاهي، ونداء الحاتي وعمال المسمط على العابرين كي يلحقوا مكانًا لتناول وجبة دسمة ساخنة.

سحب بعض الهواء العابر ليملأ أنفه بقوة، ثم قال:

- تعال أعزمك على أكلة كوارع.

وحـين وضعت أول لقمـة في فمي أيقنت أن العزومة لم تكن خالصة لوجـه الله أو الجـيرة أو حتـى بدايـة صداقـة أو علاقـة أعمـق، إنما كان «حسـونة» يريد أن يفهم أكثر، كيف عرفت أن عين «سـعد» قد وصلت إلى مسجد «الحامدية الشاذلية».

كان يلح في إجابتي عن أسـئلته، وكنت أراوغ على قدر اسـتطاعتي، حتى وجدته يقول لي قبل أن أضع آخر لقمة في فمي:

- أنا زهقت من هذه الشـغلة، زبائن هذه المآتم متكررون، وبعضهم ينظـر إليَّ بتأفف، وبينهم من يـترك يدي معلقة في الهواء ويمضي، وهناك من يذكرني بأنه قد دفع لي قبل أيام أو حتى أسابيع قليلة، ويهشني كأنني ذبابة سمجة.

ثم ذرفت عيناه دموعًا بللت رموشه وقال:

- جريت ذات مرة وراء رجل أعمال كبير، فضربني حراسه حتى أدموا أنفي، وكسروا ساعدي، وجريت في أخرى وراء وزير فأخذوني إلى القسم وتم حجزي ثلاث ليال لا أنساها، وهم يعتقدون أنني كنت أنوي به شرًّا، ولما أيقنوا أنني شحاذ من نوع آخر تركوني لحال سبيلي.

شفطت آخر ملعقة في طبق الشربة الساخنة وقلت له:

- لكنك لا تعرف شغلة غيرها، وأبوك يريدك أن تبقى هكذا، كما أن لكل باب رزق مشقة.

شرد قليلًا، ولمعت دموعه في هالات الضوء المنبعثة من اللمبة التي تواجهه، وقال:

- الكلام في سرك، وقعت في غرام بنت جميلة، واشترطت عليَّ إن أردت الزواج منها أن أبحث عن شغلة شريفة، قلت لها إنني لا أسرق أحدًا، إنما آخذ بعض حقي ممن سرقوني، لكنني في نظرها مجرد شحاذ.

- وما الذي يمكنك أن تشتغله الآن؟

ضحك وهز رأسه وقال في أسًى:

- لا أعرف.

(4)

رأيت سيارة «أسماء» واقفة في باحة الجامعة فعرفت أنها هنا. صارت ساقاي أخف، وقطعت الطريق إلى قاعة الدرس في ثلاث دقائق. وتلاقت عيوننا، وأشرق وجهها بابتسامة رائقة.

اقتربت منها، وأطلقت في صوتي كل نعومة وحرارة ممكنة، وقلت لها:

- افتقدناك بالأمس.

ومددت يدي إليها، وحرصت على أن أضغط قليلًا على أناملها الطرية، فاحمر وجهها خجلًا، وقالت:

- دور برد بسيط وراح.

ضحكت وقلت:

- سلامتك.

ودخل الأستاذ إلى المدرج فقطع حديثنا، لكنني جلست إلى جوارها، وتلامست فخذانا، فتسرب دفئها إليَّ، ومست أصابعي أصابعها، ووجدت نفسي أكتب لها في كراستها المفتوحة على صفحتين فارغتين:

- لدي إحساس عميق بأن حكاية جميلة تولد بيننا، وقد تأسرني تفاصيلها إلى الأبد.

كنت أكذب على نفسي، محاولًا أن أهرب من «سميرة» التي هام بها قلبي وينفر منها عقلي، وألوذ بعالم مخملي في رحاب «أسماء»، رغم أن داخلي يقينًا بأن مثلي ليس لمثلها، لكن بها يمكن أن أقفز درجات في سلم يأخذني إلى هدفي، حتى لو كانت خطواتي إلى أعلى مدفوعة بشفقتها هي عليَّ، أو تعاطفها مع فتى أسمر حسن التقاسيم، جاء من أقصى الوادي خالي الوفاض، ويكافح هنا كي يجد لقدميه موضعًا في الزحام.

وأحيانًا كنت أسأل نفسي:

- ولِمَ لا؟ أليس بمقدور الحب أن يصنع المعجزات؟

وكنت هنا أستعمل «سميرة» برهانًا على أن بوسع «أسماء» أن تتعلق بي، وتفتح أمامي الطريق. فأنا الذي يحلم أن يصير أكبر فيلسوف يكتب بالعربية، واقع في غرام بائعة ورد على كورنيش النيل.

كنت أحيانًا أرتبها وفق المنطق الصوري، فالفارق بيني وبين «سميرة» في العلم يماثل الفارق بيني وبين «أسماء» في المال، ولأن العلم أهم عندي من المال، فتضحيتي بحب «سميرة» أكبر بكثير من تضحية «أسماء» بحبي.

لم تكتب لي «أسماء» شيئًا ردًّا على العبارة التي خططتها فوق سطر واحد من كراستها، لكنها ابتسمت، وهزت شعرها المنساب على كتفيها، لتداري احمرار خديها من جديد.

وبعد المحاضرة لسعتني بسؤال لم أتوقعه:

- هل تعمل إلى جانب الدراسة؟

تلعثمت في الإجابة، وتذكرت ما كنت فيه بالأمس فقلت لها:

- أحاول العمل في الصحافة.

- تحاول؟

- اسمع يا عبد وأنا معك.

ضربت الهواء بيدها وقالت:

- هذا حباله طويلة، لك عندي عمل محترم، ومن الغد إن أردت.

رقص داخلي الأمل، وصرخت:

- يدي على كتفك.

- موظف علاقات عامة في إحدى شركات أبي.

سكت برهة وقلت:

- لكن هذا بعيد عن الفلسفة.

ضحكت، وقالت:

- لكنه قريب من الصحافة.

كنت فرحًا، لكنني داريت لهفتي، وأبديت بعض تمنع مصطنع، ونطقت بما لا أود لها أن تستجيب له:

- أريد فرصة للتفكير.

لكنها حققت ما أهفو إليه:

- فكر وأنت على رأس عملك .. جرب ولن تخسر شيئًا.

وكنت قد قررت منذ أن فتحت أمامي هذا الباب الجديد النظيف أن أمرق منه دون تردد. وقبل أن أودعها عزمت على أن أجمع أسمالي

البالية، وأخرج من حي «تل العقارب» في هدوء، وأمحو أيامه التعيسة من ذاكرتي.

(5)

كيف أهرب؟ ...

سألت نفسي وأنا أنقل خطوات وئيدة فوق كوبري الجامعة، واحترت بين سبيلين، إما أن أصارح «عبد الشكور» بأني قد وجدت سكنًا قريبًا من مكان دراستي، ولا بد أن أغادر، وإما أن أخرج ليلًا دون أن يشعر بي أحد، غريب قابلته، وغريب أفارقه.

لكن قبل أن ينتهي الطريق تحت قدميَّ، برقت في رأسي فكرة أكثر واقعية، سأخبر «عبد الشكور» أنني سأعود إلى «الكشح» لزيارة أهلي، وأمكث معهم أيامًا، لكن ما أملكه من ملابس قليلة وكتب كثيرة، يصعب أن تحويه حقيبة واحدة، ولذا يتعذر عليَّ أن أترك المكان في مرة واحدة.

لهذا عدت في اليوم التالي لأبحث عن سكن في حي «بين السرايات»، ودلني سمسار على غرفة معزولة تواجه شقة ضيقة، تشكلان معًا طابقًا من بيت ضيق خفيض.

سرت معه في هدوء، ودق كعب عصاه على سلم حجري وأنا خلفه، حتى وقف على باب الغرفة وقال:

ـ مسكونة الآن، وستفرغ بعد ثلاثة أيام، كان يسكنها طالب دراسات عليا مثلك، وحصل على الماجستير في المحاسبة، وبعده عقد عمل في الخليج .. كل هذا تم في أسبوع واحد.

ونظر إلى جيبي مبتسمًا وقال:

- غرفة مبروكة، ما سكنها أحد إلا أكرمه الله.

أخرجت له العربون الذي اتفقنا عليه وانصرفت، وأنا أقول لنفسي:

- ثلاثة أيام أقضيها في «تل العقارب» بهدوء، حتى لو صمت فيها عن الكلام، ثم أعطيها ظهري إلى الأبد.

ومررت بالجامعة وقابلت «أسماء» وأخبرتها بأنني فكرت وقررت الموافقة على العمل بشركة أبيها من أول الشهر، فضحكت وقالت:

- يعني بعد ثلاثة أيام.

وتمتمت في ارتياح:

- عمل وسكن بعد أقل من اثنتين وسبعين ساعة، يا للحظ حين يبتسم!

ومرق طيف «سميرة» أمامي، وشعرت بنقرة في قلبي، لكنني تذكرت المثل الذي كانت أمي تردده دومًا: «ما يقطع إلا يوصل» وعلوت على رغبتي، ودون أن أشعر ركلت الهواء بقدمي، حتى إن «أسماء» تابعت ما فعلت مندهشة، واستغرقت في ضحكة استعرضت فيها أمامي، دون قصد، صفين من اللؤلؤ وراء شفتيها المكتنزتين الشهيتين.

وسكتت فجأة وقالت لي:

- عزي «علا».

- في من؟

- خالها، مات أمس.

وبدت الدنيا مقبلة عليَّ بصورة لم أعهدها من قبل، وشعرت أن الركلة التي شرخت بها الهواء، كانت موجهة إلى النحس الذي لازمني طويلًا.

لكن لم تمض سوى ساعات قليلة حتى شعرت أن سوء الحظ يتبعني كظلي. فقد حدث ما لم يدر أبدًا بخلدي. وكما جاء، ذهب عني كل شيء.

(6)

كان السمسار قد طلب أجرة الشهر الأول مقدمًا، وشهر مثلها على سبيل التأمين، إضافة إلى ما سيتقاضاه هو، ولم يكن هذا متوافرًا لدي، ولذا كان لا بد من أن أذهب إلى مسجد «الحامدية الشاذلية».

كان الوقت قد تأخر فآثرت أن أمكث في المكتبة حتى أذان المغرب ثم أنطلق إلى رزقي. وحين وصلت لم يكن في قاعة عزاء الرجال سوى نفر قليل، لكن قاعة النساء كانت مكتظة، ويتناثر منها كلام للسلوى، وبكاء ونشيج.

وقفت تحت الشجرة المشذبة، وتركتها ترمي ظلها على جسدي، فصرت شبحًا، وأرسلت عينيَّ تحملقان في الجالسين بالداخل، كان من بينهم رجل قصير القامة، ملامحه ليست غريبة عني. عصرت ذهني وتذكرت أنني أرى صوره في صفحات الاقتصاد، ومكتوبًا تحتها «رئيس جمعية المستثمرين».

كان أول الخارجين كعادة رجال المال أو المنشغلين به، على عجلة من أمرهم دومًا، فجريت نحوه وقلت له:

– جهودكم يا أفندم في سبيل تنمية اقتصاد بلدنا تملأ عين الشمس، ما تفعلونه يجعل لكم دينًا في عنق كل مصري أن يشكركم من كل أعماقه، ويدعو لكم بموفور الصحة، وطول العمر والرفعة.

توقف ونظر في عيني وابتسم وقال:

– هل أنت تعرفني؟

ملأت وجهي بدفقة تبجيل مصطنعة، وطأطأت رأسي قليلًا، وأجبته:

– ومن لا يعرف محمود بيه الملواني.

ربَّت على كتفي، وقرأ في عيني ما أريد أن أطلبه، ورأى يدي التي تتأهب للانبساط نحو صدره، أو استعاد في لحظة ما وقع له مع أمثالي أمام مساجد أخرى، ودس يده في جيبه، وأخرج ورقة بعشرة جنيهات كاملة وأعطاها لي، ومضى.

قلت لنفسي: ستكون ليلة مثمرة، أكثر من كل الليالي، وسأحصد فيها ما أدفع به سكني وأسد به رمقي حتى نهاية الشهر. وعزمت على أن تكون المرة الأخيرة إن تحقق لي هذا، فبعد تسلم الوظيفة الجديدة لا ينبغي القدوم إلى هنا مهما كانت الظروف.

وتوالت الأعطيات، وأنا أتقدم وأتأخر في خفة، وأدس في جيبي ما أخذ يقنعني فعلًا بأنها الليلة الأخيرة، إلى أن وقع ما أفسد كل شيء.

كنت أجري بين سيقان الخارجين من قاعة العزاء، أناديهم بأسمائهم، وأفرط في مديحهم، ثم أمد يدي، حين كانت فتاة، ملفوفة في السواد، تقف إلى جانب اللافتة العالية المكتوب عليها اسم المتوفى تراقبني. لم أتبين ملامحها جيدًا، فقد كانت مغطاة بظلال كثيفة يصنعها انحراف المصباح إلى اليسار قليلًا، وربما لأنها كانت تتعمد مداراة وجهها عن مرمى بصري الزائغ.

وحين وجدت سيدة فارعة الطول تخرج من قاعة النساء، دققت في وجهها، فعرفتها، إنها الكاتبة الشهيرة صاحبة العمود اليومي في أكبر جريدة في بلدنا، والتي خصصت أغلبه للدفاع عن الفقراء، وجدتها فرصة، فهممت نحوها، وناديتها باسمها، وأنا أردد بعض عناوين مقالاتها الأخيرة، ومددت يدي في اتجاهها، فارتفع بصري، وحط على وجه الفتاة الواقفة في صمت، والتي كانت قد ابتعدت عن اللافتة خطوتين، فبانت لي، فإذا بساقي تضرب أختها، والأرض تميد من تحتي، مبتلعة قلبي الذي ارتج وكاد يفارق صدري.

كانت «عُلا» ..

جريت إلى الأمام وسمعتها تناديني:

- «رفعت» ..

يا لمصيبتي! أي رفعة لمن تمنى في هذه اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعه، ويكون نسيًا منسيًا. شعرت بأن اسمي عالة عليَّ، ولا علاقة لي به، وأن كل شيء ضاع من يدي، «أسماء» والعمل، وربما دراستي، فبأي وجه يمكن أن أقابل من ظنت بي خيرًا.

جريت حتى انقطعت أنفاسي، وجفت دموعي بعد طول انهارها، لأجد نفسي على أول شارع «البطل أحمد عبد العزيز»، وأضواء مطاعمه وحوانيته الفاخرة تتشظى في عيني، وتضطرب ألوانها، لكنها لا تقدر على أن تعطي أي بهجة للون واحد ملأ نفسي، إنه السواد.

سواد ما أنا فيه، وسواد ما ينتظرني. الآني والآتي معًا، مثل حذائي الذي كنت قد اجتهدت عند الظهيرة كي أجعله يلمع قليلًا، ربما يسقط عليه بصر «أسماء» الأنيقة.

(7)

رميت جسدي من الحافلة، ثقيلًا كجبل، وتعيسًا كيمامة تقف عاجزة عن إنقاذ فراخها من مخالب نسر جائع.

ما إن انعطفت يسارًا، وظهري إلى الكوبري الذي يئز تحت عجلات السيارات المارقة، حتى وجدت أمامي «عاطف» يتأرجح كعود خيزران في ريح عاتية.

اقترب مني وقال بشفتين مقددتين:

- جئت في وقتك يا أستاذ.

ولم يدر أنه هو الذي جاءني في الوقت المناسب، فقد كنت في مسيس الحاجة إلى أحد أتحدث إليه. لن أبوح له طبعًا بحقيقة ما أنا فيه، لكن سأثرثر معه، أو أنصت إلى ثرثرته، ففي الحالتين يتسرب بعض الهموم ولو مؤقتًا.

أشار بيده نحو عمق الشارع، وحرك شفتيه وحاجبيه وأنفه، وهز رأسه يمنة ويسرة، محاولًا أن يغتصب أي ابتسامة من نفسه المشروخة. عرفت مقصده، وسرت إلى جانبه حتى بلغنا حي «الناصرية»، حيث الشوارع الغارقة في البهجة الرخيصة.

لم يجد كلانا أي شهية، فمررنا بمسمط «بحة» دون أن نلتفت إليه، وجلسنا على أول مقهى قابلنا بعده. كنا شاردين، كل في همه، فلم نتابع جيدًا ما يجري على الشاشة الزرقاء.

كان قد همس في أذني فور جلوسنا:

- طردوني من الشغل.

نظرت إلى وجهه الذي لونته الأضواء المنبعثة من التلفاز، وسألته بكلمة واحدة:

- لمَ؟

- أهانني أولاد، فخلعت فرو الدب، وتعاركت معهم.

- لكنك تعودت على مشاكسة الأطفال لك.

- كانوا أكبر من أطفال، وتطاولوا عليَّ.

لذت بالصمت، وتابعت بنصف وعي آثار شبق على وجوه الجالسين وهم يتابعون مشهدًا ساخنًا. غمزني بإصبعه، وقال وفي عينيه دموع:

- لعنتهم، وضربت أحدهم، لأن أيديهم عبثت بمؤخرتي، وأنا أمشي على أربع، بطيئًا كدب ثقيل.

داس على أضراسه:

- ضربت كبيرهم في غل، حتى سال الدم غزيرًا من أنفه.

كان مجروحًا ومفلسًا، فعزمته على زجاجات بيرة وبراندي بالنقود التي كنت قد جمعتها أمام المسجد، وأردت دفعها للسكن الجديد.

كان يعب وكنت أجاريه حتى قمنا على سيقان خائرة، نتطوح في شارع، يعود بنا إلى حيث أتينا.

فجأة طارت من رأسينا آثار الغياب المؤقت، الذي صنعته الزجاجات التي تجرعناها في غيظ مكتوم. طار من أثر الصراخ الذي ملأ الآذان، والجؤار الآتي من العتمة الرائقة المفروشة أمام أكشاك الكتب.

قال «عاطف» وقد اكتسى وجهه بهلع مفاجئ:

- هذا صوت «سعد» .. لن تمضي هذه الليلة بسلام.

شخصت ببصري في عمق ظلام يناوشه النور من بعيد، وقلت:

- لكنه يصرخ .. «سعد» هو الذي يصرخ.

نظر في الاتجاه نفسه وهو يتقدم في حذر، وأنا معه، وقال:

- ما يحصل غير مفهوم.

بعد دقيقة واحدة بدا كل شيء واضحًا، وبدأت أنا أفهم لأني رأيت، ومن رأى غير من سمع، فما بالك بمن رأى وسمع؟ فهمت ولم تولد في عيني دهشة، بينما كانت تكبر في عيني «عاطف»، وتجعله يفغر فاه إلى نهاية ضفتيه.

كان «سعد» هو الذي يصرخ، ويتقافز كقرد جائع، ثم ترنح ليرتطم جسده بالأرض: طررراااااخ. لكنه عافر من جديد، وحاول الوقوف على قدميه دون جدوى. كان يتقهقر، وشيء يلمع برقبته، يلمع في خيوط شعاع خفيف، ترسله لمبات محطة المترو.

حين انحرف قليلًا نحو بقعة ضوء، رأينا كل شيء. زجاجة مغروسة في رقبته، أسفل يمين تفاحته، والدم يلطخ ثيابه، ويتقاطر على الأرض. ثم التفت ساقه اليمنى باليسرى، وسقط بلا حراك، بعد أن شحط مرات محاولًا عبثًا أن يبقى على قيد الحياة.

سـقط وفي يده مطواة قرن غزال، لم تسعفه في الدفاع عن نفسه؛ لأن غريمه، كما بدا لنا، قد فاجأه بتلك الضربة المميتة.

وتجمع الناس حول «سـعد» وهو يغيب إلى الأبد، ورأينا جميعًا صبية بثيـاب رثة وشـعور مجعدة ملبدة من فـرط القذارة، يخرجـون من النفق المظلـم الذي يتمدد تحت محطـة المترو، وينتشرون في المكان. كان بينهم فتى يمد يده إلى يد فتاة، ويقتربان من الجمع في حذر.

نظـرت إليه مليًّا، فعرفتـه، هو «صلاح» وهي «فاتـن». وصرخ ولد من بين الخارجين من النفق كان قد اندس وسـط الحلقة التي تزايد عدد الذين يصنعونها:

– «سعد» مات يا «صلاح» ... انتقمت لشرفك، مات خلاص.

وما إن سـمعه الفتـى الذي يناديه حتى أخذ فتاته وجريـا سريعًا في الاتجاه المضاد. وكان سـلم المحطة الأقرب إليها، فصعداه سريعًا، وبان جسداهما يرفرفان في لجة الضوء العلوية، وبلعهما الظلام.

(8)

حكـى بعـض الخارجين من النفق مـا جرى، وعرف أهـل حي «تل العقارب» كل شيء. بان لهم دنس الذي مات، وبصقوا عليه وهو عاجز عن مسـح البصاق الذي ملأ وجهه، وصبيانه الذين أتى بعضهم جريًا، وقفـوا وعلى وجوههم خزي، وراحوا ينسـلون في هـدوء إلى الوراء، ثم غـاب بعضهم في الطريـق المؤدي إلى حـي «الجيـارة»، وبعضهم تراجع وانقلب نحو عمق شارعي «بور سعيد» و«السد».

كـسرت الصمت زغرودة آتية من نافذة مضاءة معلقة في بيت مرتفع قليـلًا، فانتقلت إليها عيـون الواقفين، ثم تبعتها أخـرى رفيعة وطويلة، وتوالت الزغاريد حتى غطت كل البيوت.

سريعًـا انتهـى كل شيء، فقـد عرفت الشرطة من مـات، ومن قتله، وعرف الناس المكان الذي دفنوا فيه جثة «سعد» ليتولى الدود أمرها.

(9)

رأيت «سميرة» تشق الزحام، حتى وقفت إلى جانبي على رأس جثة «سعد»، كان منبلج العينين، ويحط في إحداهما شعاع قادم من هناك، فبدت مخيفة، أو هكذا تصورها الواقفون حوله، مستعيدين كل ميراث الخوف الذي لا يزال غضًّا.

أحسست بأناملها تتمدد بين أناملي، وقبضت على يدي، دون أن يراها أحد في هذا الزحام. داست على أصابعي بطريقة ذات مغزى، وكأنها تقول: زالت العقبة التي كانت بيننا. وقلت في نفسي: ماذا لو عرفت ما جرى لي عند المسجد؟ ربما وقتها لا تكتفي بالضغط على أصابع يدي، إنما أصابع قدميَّ أيضًا، وربما التصقت بي بطريقة تخطف أبصار الواقفين من فوق جثة القتيل لتذهب إلينا، وربما قبلتني دون أن تخشى أحدًا ولا شيئًا.

انصرفنا مع المنصرفين، أنا و«عاطف» وسارت «سميرة» بيننا تتراقص خطواتها الجذلانة، وهي تتعمد أن تمس أناملها أناملي، حتى تلامست كتفانا بقوة حين دخلنا إلى الزقاق الضيق المفضض بغبشة الفجر الوليد، يملأ آذاننا صوت عم «خليل» وهو يقول في ثقة تامة من بين أسماله البالية:

– قادر على كل شيء.

كان «عبد الشكور» لا يزال سهرانًا، وقد اتسع وجهه من الفرحة حتى ظننته قد تبدل، أو صغر عشر سنين على الأقل.

كاد يأخذني في حضنه، وهو يقول:

– لا بد أنك جوعان.

هززت رأسي نافيًا، ونظرت إلى «عاطف» وقلت:

– شبعان.

ابتسم، كما لم يبتسم من قبل، وقال:

– عمومًا الغداء ينتظرك، محمر ومشمر، وما لذ وطاب.

ضحكت وتساءلت مندهشًا:

– وما المناسبة؟

طوح يده في الهواء:

– وهل نحتاج إلى مناسبة كي نعزمك .. أنت ابننا، ألم أقل لك هذا مرارًا؟

تثاءبت وقلت:

– اعذرني يا عم، لا بد من النوم.

ابتسم وقال:

– نم قرير العين، غريمك راح، وطريقك اتسع.

لم أعلق ودفعت قدميَّ على السلم، حتى وصلت إلى غرفتي المعلقة فوق السطح، فتحت الباب، وألقيت جسدي على السرير، دون أن أخلع شيئًا، حتى حذائي.

لم أشعر بالوقت، واستيقظت على دقات قوية على الباب. قمت أفرك عينيَّ وأتثاءب، فوجدت «عزازي» يقف ويجذبني من يدي وهو يقول:

- اليوم إجازة بمناسبة من راح بلا عودة، وهناك وليمة تنتظرك.

لم يكن لديَّ أي شهية للطعام، فعدت لأجلس على طرف سريري، ودخل هو خلفي، وجذبني من يدي، وقال:

- أبي أمرني ألا أعود إلا بك.

وملأ عينيه بابتسامة عابرة، ورطَّب شفتيه قليلًا وقال:

- لا بد أن تأكل من طبيخ «سميرة».

وطلبت منه أن يمهلني حتى أذهب إلى الحمام، لأقضي حاجتي وأغسل وجهي، وأعود. فوقف وقال وهو يخطو إلى الأمام:

- سأنتظرك على السطح.

ثم وهو يمشي نحو السلم:

- أو سأنتظرك تحت.

وقبل أن يغطس رأسه في المنحنى الضيق المعتم صرخ:

- إن لم تأت في خلال عشر دقائق فسأعود إليك، لكن هذه المرة بالعصا.

دفنت رأسي في دورة المياه الضيقة القذرة، وأنا أسد أنفي من الرائحة العفنة. كان الهواء يصفُرُ في الخارج، ويمرق من ثقوب حائط الصفيح، ويضرب فخذي وكتفي، يهيج ثم يهدأ ويعود ليهيج من جديد.

في هدوئه تناهى إلى سمعي ما يدور بين امرأتين في البيت المجاور. كان الصوت يصعد من أسفل إلى أعلى، لكنه بدا واضحًا بالنسبة لي، على الأقل حين كانت الريح تسكن قليلًا.

قالت الأولى للثانية:

- غار «سعد» في ستين داهية.

ردت عليها:

- أخذ الشر وراح.

وسادت لحظة صمت بينهما، كسرتها الأولى:

- أتدرين ماذا قال عن بنت «عبد الشكور»؟

سمعت ضحكة من الثانية، ثم قالت:

- تسلل إلى بيتهم بالأمس في غفلة من أبيها، وصعد إليها وهي تنظف غرف إخوتها، وغدر بها ثم فضح كل شيء على المقهى وهو سكران.

سمعت الثانية تتنهد في حرقة وتقول:

- ربنا يستر على ولايانا.

وانسحب باب، واصطكت نافذة، وعاد الصمت بينهما، لكن الريح عوت من جديد، وقاومتني وأنا أفتح باب الحمام، حتى كدت أسقط على ظهري، ولم تتركني سوى بخدش في راحة يدي، صنعه رأس مسمار صغير صدئ، اندفع بقوة من اندفاع باب الصفيح، الذي كان يرتج، حتى ظننته سيطير بي إلى فوق سطح الجيران.

على طبلية الغداء لاقيت ما لم ألاق في هـذا البيت منذ أن حللت به. كان الجميع يتنافسون في منحي ابتساماتهم وخبزهم، وكانت من نصيبي أكبر قطعة لحم ضأن.

تغيروا بين عشية وضحاها، ورد «عبد الشكور» على الحيرة التي ملأت عينيَّ بقوله:

- كان المجحوم يجعلنا جميعًا نتصرف على غير طبيعتنا.

أما «سميرة» فكانت تبدو منكسرة دون أن تفقد الكثير من بهائها، وراحت ترميني بنظرات خاطفة من وراء ظهورهم، وإن كنت قد شعرت أحيانًا أنهم يتلقطونها لكن يضربون عنها صفحًا.

وتمنيت لو وجدت فرصة لأستفهم منها عما سمعته من جارتينا، لكن هذا لم يتحقق لي، وانحبس داخلي السؤال.

بعد الغداء أصر «أبو عوف» أن يعزمني على المقهى، وقال:

- نشرب الشاي هناك.

ولما فارقنا أباه، همس في أذني:

- معي قطعة حشيش معتبرة.

لكنني أبيت أن يحدث هذا في المقهى، فقال:

- لا تخف، هذا يحدث طول الوقت.

اغتصبت ضحكة من وسط كآبتي، وقلت:

- ممكن أن تقع الطوبة في المعطوبة.

رنت حنجرته بضحكة عفية، ثم قال:

- سنسهر الليلة مع الدخان الأزرق.

دخلنا المقهى، وعلى كرسي من الخشب، جلست محاذرًا المسمار الذي لمحته في جنبه حتى لا يمزق بنطالي، ووليت وجهي شطر أكشاك الكتب، والذين يتقاطرون عليها بحثًا عن معرفة. بدت لي هي الشيء الوحيد المبهج وسط هذا البؤس.

طلبت شايًا أسود وشيشة، وجلست أدخن شاردًا عن «أبو عوف» الذي كان ينشغل أغلب الوقت بمشاكسة بعض شباب يتحلقون حول الورق. شعرت بأن المقعد الذي أجلس عليه ينغرس أكثر في هذه الأرض، ويأخذ معه أحلامي إلى أسفل.

نعم، بدا المكان مألوفًا أكثر، ليس للمعاملة التي لقيتها في بيت «عبد الشكور» قبل قليل، إنما لأن شيئًا من أسباب الوصال مع عالمي غرب النيل، حيث الجامعة، قد انقطع.

«هل بوسعي أن أريها وجهي بعد اليوم؟» .. سألت نفسي، وأنا أمعن النظر في وجه «أسماء» الذي كان يُرسم أمامي في الفراغ.

رأيتها تمشي نحو المكتبات الصغيرة، كما مشت ذات يوم قريب، ورأيتني أهِمُّ خلفها حتى ألحق بها، وأصابعي تمس أصابعها.

كاد صوتي يناديها: «أسماااااااااااااااااااااااء»، لكنني بلعته مع الدخان الأسود، ثم نفثت كل شيء في وجه الريح، التي عادت تزمجر، وتكنس أمامها ورقًا وقشًا، ثم ترفع بعضه ليدور في الفضاء القريب، ويصنع أمام ناظري دوامات مزعجة، تحجب الرؤية.

اجتاحتني رغبة في النوم من جديد، فقمت ثقيل البطن من كثرة الطعام الذي تصارع من أجل هضمه، وثقيل الصدر من الدخان الذي انحبس فيه. دخلت الزقاق، وأنا أرفع بنطالي من بركة ماء قذر، وأنقل قدميَّ في حذر فوق قوالب الطوب الأحمر التي وضعها الناس لتعينهم على العبور البطيء.

كانت قيلولة مختلفة، ذهب التثاقل وحل الأرق، وشردت في همومي السوداء، ولم أجد مهربًا منها سوى في كتاب، التقطته من الكومة الراقدة إلى جانب الدولاب، وحاولت أن أغرق فيه. لكن كل شيء كان يقتحمني بين السطور، وجه «أسماء»، وظلال «عُلا» وهي تنادي عند المسجد، وقاعة المحاضرات، وكوبري الجامعة، وأقران القرية الذين يراهنون على فشلي في صمت.

رميت الكتاب إلى جانبي، ودفنت رأسي تحت الوسادة، وبللتها بدموع ساخنة غزيرة. بكيت كما لم أبك من قبل، وعضضت طرف اللحاف حتى لا يخرج صوت نشيجي من النوافذ الضيقة، ويفضح ضعفي وفشلي.

أراحني بكائي قليلًا، وتحايلت على النوم لكنه لم يأت، وتابعت الظلام وهو يسرق من عيني كل الأشياء، هنا في الغرفة، أو على سطوح الجيران.

كان المذياع ملقى تحت الطرف البعيد من الوسادة، ففتحته، وأدرت المؤشر متجاوزًا الكلام والوشيش حتى هلت الألحان الشجية، فتركته، ويا للغرابة، كانت «أم كلثوم» تشدو بأغنية لم أسمعها في حياتي سوى مرة واحدة من قبل:

«يا طول عذابي واشتياقي

ما بين بعادك والتلاقي

ياما غالبت الشوق وشكيت

من طول غيابك عن عيني

أقول لقلبي وليه الشوق

مادام ح يعطف ويجيني

أصبر مع الأيام تتحقق الأحلام

وتشوف حبيب الروح جاني

وجاد بقــــــربه وهناني

ساعتها أنسى ليالي النوح

وأخاف وقتي يروح مني

من غير ما أقول له ع اللي قاسيت

أيام ما كان غايب عني».

كانت تعيد المقاطع وأنا أكررها معها، وصوتي يدور حولي، ويملأ أذنيَّ أسى وغربة، وأنا أوزع الكلمات المشحونة بالوجع على طموحي الذي يترنح، ووجه «أسماء» الذي يهرب مني، وجسد «سميرة» الذي يحضر، فيتحرك داخلي ما يريد أن يفسد غبطة الروح بالألم، لكن روحي تتغلب وتعود لتعانق الموسيقى الباكية.

وطرقت الباب يد قوية كادت تخلعه، قمت إلى قابس الكهرباء فأعاد النور الأشياء التي سرقها الظلام. فتحت فوجدت «أبو عوف» وفي يده كيس أسود، ما إن جلس حتى جاء «عزوز» ومعه آنية من الفخار، وطلبا مني أن أفرش أي شيء على الأرض. مصمصت شفتيَّ وقلت لهما:

- وهل هناك شيء في بيتكم هذا؟

فنظر «أبو عوف» إلى اللحاف، وجذبه وهو يقول:

- هذا يكفي.

وفرشه وجلسنا عليه، وعلى الأرض إلى جوارنا وضع آنية الفخار، وأخرج من الكيس فحمًا، وزجاجة صغيرة مملوءة بالكيروسين، فصبها عليه، وأشعل النار. ثم أخرج جوزة مملوءة بماء نظيف، وباكو معسل «سلوم» كبيرًا، والورقة الملفوف فيها قطعة الحشيش التي كان قد عرضها عليَّ قبل ساعات قليلة، وزاد على ذلك بإخراج ثلاث زجاجات «براندي»، ونظر إليَّ وقال:

- سأنسيك همومك.

وقهقه «عزوز» وقال:

- بل سينسى اسمه.

وكان هذا هو المراد. سحبت من البوصة القصيرة نفسًا عميقًا، إلى درجة أن «أبو عوف»، نظر إليَّ باستغراب، وقال:

- يقول لك فلسفة، مع إنه حشاش من ظهر حشاش.

وردَّ «عزازي»:

- هي فعلًا فلسفة، لكن من نوع ثاني، لا يُدَرَّس في الجامعة أبدًا.

ورغم أن رأسي بدأ يثقل لكن كان جزء من مخي لا يزال يقظًا، ففكرت فيما قاله، وقلت في نفسي: «إنها فلسفة الغياب، الهروب، اللامبالاة، الانتحار البطيء الذي يسلك طريقه عن طيب خاطر من فقدان الأمل».

وصبًّا ما في الزجاجات وأعطياني، فكنت أسحب الأنفاس من الجوزة، وأعب الجرعات من الكأس، حتى شعرت بأن رأسي أصبح جبل المقطم، وضاعت فيه معالم الأشياء، فسقطت مكاني.

(10)

فتحت عينيَّ على صوت ارتطام شيء بالأرض، فوجدت نفسي على السرير في حضن «سميرة»، وباب الغرفة ونوافذها مغلقة بإحكام، لكن العتمة الرائقة لم تحل دون أن أراها عارية. وحين تحسست جسدي وجدته عاريًا أيضًا.

قمت مفزوعًا، وكانت هي يقظانة، هكذا بدت لي، وقلت لها في وجل:

– ما الذي جرى؟

قطبت جبينها وقالت في ثبات:

– فعلتَ ما حاولتُ أن أمنعك عنه، لكنك كنت عازمًا عليه.

نظرت إليها باستنكار وسألتها في غيظ:

– وما هو؟

أن يقع بيننا ما لا ينبغي أن يكون إلا بين زوج وزوجته.

ثم انتفضتْ فجأة كأن ثعبانًا قد لدغها، وأمسكت بكتفيَّ، وصرخت:

– يا مصيبتي! ماذا أقول لأهلي؟!

وقفت عاريًا على أرضية الغرفة، ملفوفًا بعتمة لا تمنعها من أن ترى مني ما لم أُرِد لها أن تراه.

ووجدتها تحولت فجأة إلى نمرة شرسة، وقبضت على يدي، وأخذتها إلى شيء مبلل بين فخذيها، وقالت:

– ضيعت شرفي، الله يضيعك.

جريت إلى قابس الكهرباء، فرأيت أصابعي قد صارت حمراء، وحين أعدت بصري إلى عريها، رأيت بقعًا وخيوطًا حمرًا متفاوتة الأحجام والأطوال، وكانت ملاءة السرير لها نصيب من هذا.

انتقلت هي من الشراسة إلى الوداعة في لحظة، وجلست القرفصاء، وغطت جسدها باللحاف الممزق، الملطخ بسواد الفحم، وحمرة الدماء، وانخرطت في بكاء حار.

اقتربت منها، فأطاحت بيدي، وقالت في حرقة:

– جلبت لي العار.

هممت أن أقول لها مؤنبًا:

– أنت التي أتيت إلى مخدعي، وكنت غائبًا عن الوعي.

لكن بلعت لساني، وتناهى إلى سمعي دبيب أقدام في الخارج، كانت تقترب وتبتعد، ثم انفتح الباب، ولأول مرة أرى «عبد الشكور» هنا فوق السطح يقف منحنيًا، يسنده أولاده الأربعة من منكبيه، وخلفهم زوجته.

دخلوا وأحاطوا بي من كل جانب.

(11)

بعـد أربع سـاعات عقـدوا قـراني على «سـميرة»، وحـددوا موعدًا للزفاف بعد يومين، وكرت الساعات أسرع مما أردت. لكن وهي تسرع خطاها رمت في طريقي ما مزق أحشائي.

كنت أرمي رأسي على الوسادة حين لمحت شيئًا يبرق في شعاع اللمبة المصـوب إلى الأرض. قمـت إليـه، وأمسكته، وخارت قـوتي من فرط الخديعة. كانت قارورة صغيرة بها بقايا دم.

استدعيت حديث المرأتين الذي تسـلل إلى أذني في اليوم الذي فات، وضربت كفًا بكف، لكن لم يلبث عجزي أن ابتلع غيظي.

لم يطلبـوا منـي أن أستدعي أهلي لحضور زفافي، وحمـدت الله أنهم لم يصروا على هذا الطلب، الذي لم يكن بوسعي أن ألبيه حتى لو صلبوني.

راقبـوني كسـجين، وجهـزوا لي عـلى عجـل أثاثًـا بسـيطًا، يليق بهذا الجحر المعلق في الهواء، واشـتروا لي بذلة سوداء، وقميصًا أبيض ورابطة عنـق حمراء، وعلمـوني كيف أرتديها. طلبت منهـم أن أصعد إلى غرفتي لأستريح قليلًا، فهزوا رءوسهم جميعًا.

صعدت السـلم المتآكل على مهل، ببطء كأني ذاهب إلى المشـنقة. نعم لم أكـن أكره «سـميرة» لكنني كرهت كل ما جـرى من أجل أن يربطوها بي ويربطـوني بها، بحبل غليظ لم أجدله أنا. ولم أجد عزائي إلا في كلمات قديمة محفورة في رأسي عن القسمة والنصيب.

دخلت الغرفة والشـمس تخرج منها، والضـوء ينحسر عن سريري الجديـد، فتنتعش العتمـة في الجنبات كافة، وتأخذني إلى ما يليق بمثلي أن يوجد.

العتمـة التـي أتيت من آخر الدنيا لأبددها تشتد وتبتلعني في بحرها الذي لا أرى قراره.

وجـرى الزفاف كما أرادوا، نصبوا سرادقًا عند حنفية المياه، ورقصوا عـلى غناء مطرب رخيـص، وشربوا صناديق بيرة عـلى قدر ما احتاجت عقولهـم أن تغيـب، وأحرقـوا حشيشًـا حتـى ازرقَّ الهواء مـن حولهم، وعادوا إلى منازلهم وتركوني لمصيري، لغيابي الطويل عن أحلامي.

أسـبوع واحـد قضيته بين السـطح وغرفتي، تدعوني «سـميرة» كل وقـت لمضاجعتها فألبي، وتصعـد إلينا صواني الأكل، بما يعينني على أن أكفي شراهتها.

وما إن انتهى الأسـبوع حتى وجدت «أبو عوف» يطرق باب الغرفة عند الضحى، ويقول:

- أبي يريدك.

نزلـت على السـلم وأنـا تائه وموزع عـلى عشرات السـبل، وراحت رائحـة طيبـة تقتحـم أنفـي، وتملأ صـدري. سـعلت وأنا عـلى الدرجة السفلى، فسمعت «عبد الشكور» يقول وهو يغالب سعاله:

- سلامتك يا نسيبي العزيز.

ومـا إن فتحت عيني اللتين أغمضهـا الدخان، حتى وجدت أمامي مبخـرة متينـة مربوطـة في حبل مجـدول بعنايـة، وعلى جدرانهـا المعدنية اللامعة نُقشت آية : «ومن شر حاسد إذا حسد».

ووجدت يد «عبد الشكور» تمتد إليها، وترفعها من مكانها في هدوء، وتمدها نحوي. نظرت إليه وهززت رأسي مستفهمًا، فضحك حتى رأيت كل أسنانه المثرمة، وقال:

- اسع على رزقك.

رواية

باب رزق

هذه الرواية

"حين حدثنا عن تحايل الناس على الرزق، هتفت من أعماقي في صمت، هو .. هي. وكنت أقصد هو الأستاذ، وهي المسألة التي يجب أن تشغلني في قابل الأيام. رحل هو، وبقيت هي، ولا استغناء عنها.

في المساء ارتديت أكثر ملابسي قتامة، وذهبت إلى العزاء، قلبي مفطور، وتحت المقلتين دمع حبيس، وقدماي تقطعان الخطوات على مهل، كأني أنا الذي أذهب إلى كفني.

كنت حزينًا كما ينبغي للحزن أن يكون، ولم يعرف كل الذين مددت إليهم يدي، التي كانت لا تزال الرمال عالقة تحت أظافرها، لماذا أنا متأثر لهذه الدرجة؟ ولماذا لا تريد يدي أن تغادر أيديهم وأنا أمشي في مواجهتهم مكسورًا؟".

يتحايل شباب حي عشوائي على التقاط أرزاقهم بطرق غريبة، ويحركهم كعرائس الماريونيت عجوز قعيد له في المكر باع طويل. وسط هذا البؤس تولد قصة حب ناقصة، وصراع دام ضد سارقي القوت والفاسدين في جهاز الشرطة، لكن كل هذا لا يبدد آمالًا عريضة بالخروج من الأزمة الغارقة في العوز إلى براح عالم زاخر بالنعمة والراحة. في منتصف الطريق تتوالى المفاجآت لتحدد مصائر بشر متعبين، وتوزعهم على مصائر لا تخطر على بال.





